حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية

تصدر عن مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت

دورية علمية محكّمة تتضمن مجموعة من الرسائل وتعنى بنشر الموضوعات التي تدخل في مجالات اهتمام الأقسام العلمية لكليتي الآداب والعلوم الاجتماعية

الحولية الحادية والعشرون

الرسالة الستون بعد المئة

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م

هيئة التحرير

د. نسيمة راشد الغيث

رئيسة التحرير

- **أ. د. سمير محمد حسين**

  (قسم الإعلام).

- **د. عبدالرضا علي أسيري**

  (قسم العلوم السياسية).

- **د. عثمان حمود الخضر**

  (قسم علم النفس).

- **د. فهد عبدالرحمن الناصر**

  (قسم الاجتماع).

- **د. فيصل عبدالله الكندري**

  (قسم التاريخ).

- **د. ليلى حكمت المالح**

  (قسم اللغة الإنكليزية وآدابها).

- **أ. د. محمود سليمان ياقوت**

  (قسم اللغة العربية وآدابها).

- **أ. د. ميشيل حنا متياس**

  (قسم الفلسفة).

الهيئة الإستشارية

- أ. د. أحمد عتمان

(قسم اللغة الإنجليزية وآدابها - جامعة القاهرة)

- أ. د. إسماعيل صبري مقلد

(قسم العلوم السياسية - جامعة أسيوط)

- أ. د. جيهان رشتي

(قسم الإذاعة والتلفزيون - جامعة القاهرة)

- أ. د. حياة ناصر الحجي

(قسم التاريخ - جامعة الكويت)

- أ. د. عبدالعزيز حمودة

(قسم اللغة الإنجليزية وآدابها - جامعة القاهرة)

- أ. د. عز الدين إسماعيل

(قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة عين شمس)

- أ. د. محمد غانم الرميحي

(قسم الاجتماع - جامعة الكويت)

- أ. د. محمد محمود إبراهيم الديب

(قسم الجغرافيا - جامعة عين شمس)

- أ. د. محمود رجب

(قسم الفلسفة - جامعة القاهرة)

- أ. د. محمود سيد أبو النيل

(قسم علم النفس - جامعة عين شمس)

- أ. د. محمود فهمي حجازي

(قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة القاهرة)

قواعد النشر في

حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية

١ – حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية دورية علمية محكمة تنشر مجموعة من الرسائل في الموضوعات المندرجة تحت اختصاص الأقسام العلمية بكليتي الآداب والعلوم الاجتماعية.

٢ – تنشر الحوليات البحوث والدراسات الأصيلة باللغتين العربية والإنجليزية، على ألا تتجاوز صفحات أي بحث ١٥٠ صفحة ولا يقل عن ٤٠ صفحة.

٣ – تقدم البحوث مطبوعة على مسافتين من ثلاث نسخ على ورق مقاس ٢١ × ٢٩سم (A4) وعلى وجه واحد فقط وترقم جميع الصفحات بما في ذلك الجداول والصور التوضيحية، ويراعى التصحيح الدقيق للمطبوع في النسخ جميعها.

٤ – يرفق الباحث ملخصاً باللغتين العربية والإنجليزية في حدود ٢٠٠ «مئتي» كلمة يتصدر البحث.

٥ – ترسم الخرائط والأشكال والرسوم بالحبر الصيني على ورق «شفاف» لتكون صالحة للطباعة. أما الصور الفوتوغرافية فتطبع على ورق لماع، وإذا كانت ملونة فلا بد من تقديم الشريحة الأصلية.

٦ – يراعى وضع خطوط متعرجة تحت العناوين الجانبية، والألفاظ والعبارات التي يراد طبعها ببنط ثقيل.

٧ – تكتب في قائمة المصادر التفاصيل المتعلقة بكل مصنف من حيث اسم المؤلف كاملاً مبتدأ باللقب أو الاسم الأخير، وعنوان المصنف تحت خط متعرج وذكر الأجزاء أو المجلدات واسم المحقق أو المترجم ورقم الطبعة، ومكان النشر ثم اسم المطبعة أو دار النشر، ثم سنة النشر، ويتبع في قائمة المصادر النظام الآتي:

– الطبري، أو جعفر محمد بن جرير.

– تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٣، مصر، دار المعارف، د.ت.

– جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق محمد محمود شاكر، ط٢، دار المعارف بمصر. د.ت.

- الشايب، أحمد، تاريخ النقائض في الشعر العربي، ط٣، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٦.

٨ – تثبت الهوامش على النحو التالي:

يذكر لقب المؤلف ثم الجزء ثم رقم الصفحة، وإذا كان للمؤلف أكثر من مصنف في البحث فيذكر لقب المؤلف ثم عنوان المصنف، ثم يليه الجزء، ثم رقم الصفحة، ويتبع في الحواشي النظام الآتي:

- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٣، ص ٩١.
- الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج٢، ص١٢٠.
- الشايب، ص ٤٠.

٩ – توضع أرقام التوثيق بين قوسين وترتب متسلسلة حتى نهاية البحث، فإذا انتهت أرقام التوثيق في الصفحة الأولى عند الرقم (٦) يبدأ التوثيق في الصفحة الثانية بالرقم (٧) وهكذا.

١٠ – أصول البحوث التي تصل للحوليات لا ترد ولا تسترجع سواء نشرت أم لم تنشر.

١١ – لا تقبل الحوليات البحوث التي سبق نشرها، كما لا يجوز نشر البحوث في مجلات علمية أخرى بعد إقرار نشرها في الحوليات إلا بعد الحصول على إذن كتابي بذلك من رئيس تحرير الحوليات.

١٢ – تمنح إدارة الحوليات لمؤلف كل بحث منشور ثلاثين نسخة مجانية من بحثه.

١٣ – ترسل البحوث وجميع المراسلات الخاصة بالحوليات إلى:

رئيسة تحرير حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية

ص.ب: ١٧٣٧٠ الخالدية

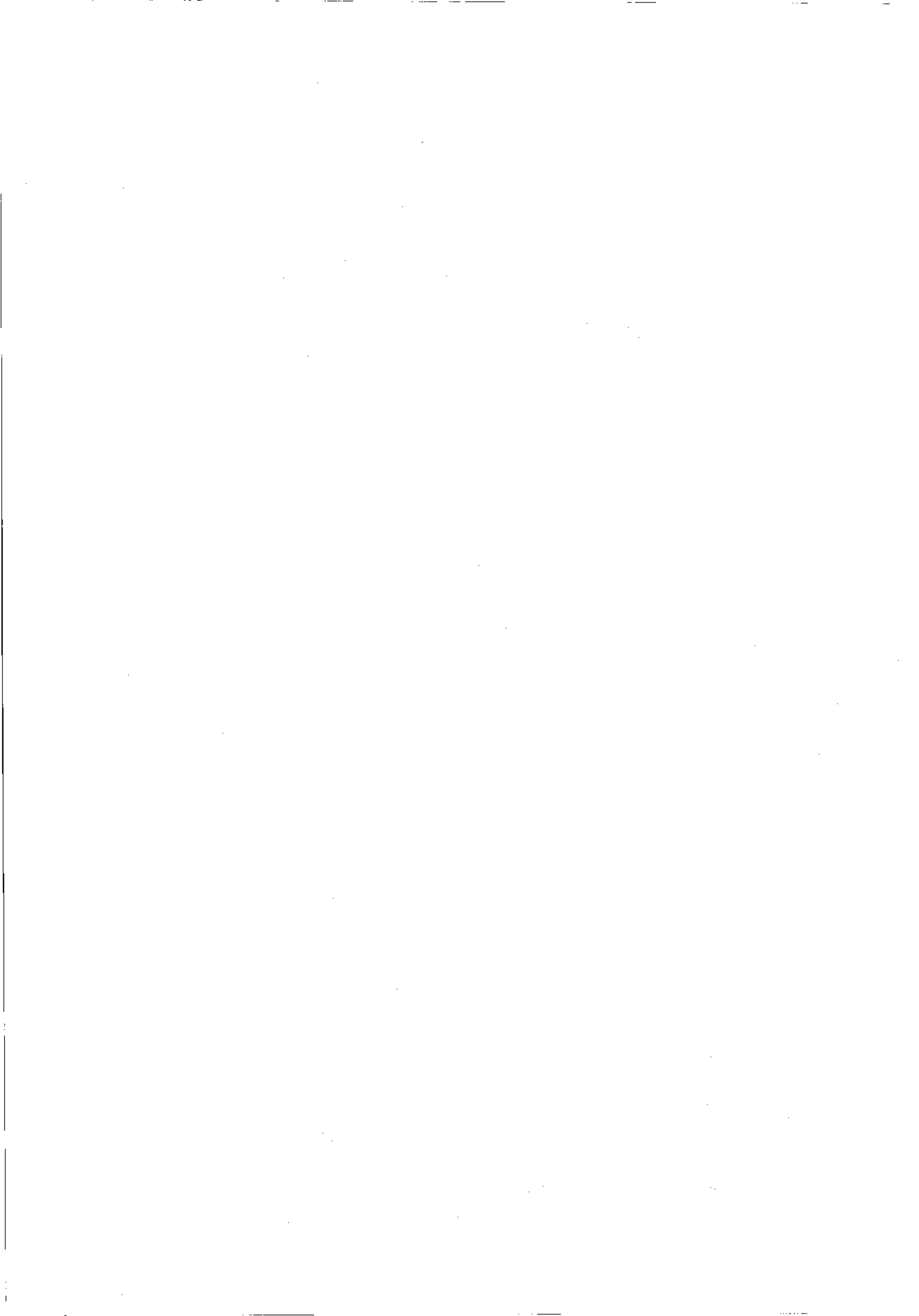
رمز بريدي: 72452

الكويت

ISSN 1560-5248 Key title: Hawliyyat Kulliyyat al-adab

http://pubcouncil.kuniv.edu.kw/AFA/

E-mail: aotfoa@kuc01.kuniv.edu.kw



الرسالة: ١٦٠

زرادشت والزرادشتية

د. الشفيع الماحي أحمد
قسم الدراسات الإسلامية - جامعة الملك سعود

المؤلف:

د. الشفيع الماحي أحمد

- دكتوراه في العقيدة الإسلامية.
- أستاذ مشارك في العقيدة الإسلامية.

المؤلفات:

- بحوث

- محمد ﷺ في أسفار المجوس الزرادشتيين - مجلة جامعة الملك سعود، المجلد السادس، العلوم التربوية والدراسات الإسلامية (٢).
- مشكلة خلق القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد الحادي والستون، شتاء ١٩٩٨، ص ص ٩٤-١١٨.
- أبعاد الحب النفسية من خلال التجربة الذاتية لابن حزم، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد الثالث والستون، صيف ١٩٩٨، ص ص ١١٠-١٣٣.

- كتب

- محمد ﷺ في بشارات التوراة والإنجيل. كلية التربية، مركز البحوث التربوية، جامعة الملك سعود، الطبعة الأولى ١٩٩٥.
- يأجوج ومأجوج فتنة الماضي والحاضر والمستقبل. دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٦.

محتوى البحث



ملخص

١ - أهداف البحث:

تعرض البحث بالدراسة والتحليل لأصول وفروع الدين الزرادشتي القديم، وقارن بينها وبين أصول وفروع الدين الإسلامي، موضحاً مظاهر التحريف والتغيير التي طرأت على الدين وأدت به في النهاية لأن يتحول إلى الدين المجوسي الذي كان سائداً قبل زرادشت. ثم عرض البحث لتاريخ الدين منذ وفاة زرادشت إلى يومنا هذا.

٢ - مراجع البحث:

كتاب الابتساق المقدس عند المجوس وبعض الكتب العربية والإنجليزية التي أرخت لزرادشت وللزرادشتية.

٣ - نتيجة البحث:

أثبت البحث أن الدين الزرادشتي هو دين أوحى به الله إلى زرادشت، وبرغم التحريف والتغيير الذي أخرجه عن أصول الدين الحق إلا أن معنى هذا الدين بقي كامناً فيه منذ ذلك الزمن البعيد إلى وقتنا الحاضر، وهو المعنى الذي يعيش به الآن المجوس في الهند وإيران.

* * *



تقديم

يهدف هذا البحث إلى تحقيق أمرين: عرض حياة زرادشت في أطوارها المتعددة، وعرض لرسالته الدينية، وهو أساس البحث، إذ بدأ بالحديث عن أصول الدين متناولاً أولاً الكلام حول الإله وأسمائه وصفاته، وحقيقة الثنائية في الدين، ووجود الملائكة واليوم الآخر وغيرها من الموضوعات ذات الصلة.

وبعد الأصول تطرق البحث إلى الحديث عن الفروع حيث أبان نظرة الدين عن طهارة البدن والنفس، ثم العبادة كالصلاة والصوم والزكاة وبناء الأسرة، والتقرب إلى المعبود بالعمل كفلاحة الأرض ورعاية ما يرتبط بالأرض كالثور والكلب.

أما الشق الثاني من البحث فقد تركز جله حول مسيرة الدين الزرادشتي عبر التاريخ، وكيف استحال على مر العصور إلى خليط متنافر من اعتقادات شتى أبرزها الاهتمام بالنار إلى حد التعظيم، فأُطلق عليه دين المجوس، وهو الاسم الذي أصبح علماً عليه.

وتناولت خاتمة البحث حال الزرادشتية اليوم في كل من إيران والهند، أي المرحلة الأخيرة من تاريخه التي تحول فيها الدين إلى نزعة قومية، مع الإشارة إلى بعض ما بقي من الدين من مظاهر تعبدية وعقدية.

* * *

مدخل

إن فكرة التكليف الإلهي من حيث هي إرادة الله تعالى لفعل ما على الإنسان فيه كلفة ومشقة، قد أحدثت في طبيعته ونوعه من التأثير ما ظهر للوجود بأمرين:

الأول: بوظيفة جعلت منه الخليفة والنائب عن الله تعالى في أرضه.

الثاني: بصفة جعلت له في علاقته بالله تعالى خصوصية ليست لغيره، وهي صفة المكلَّف.

والوظيفة والصفة كلاهما لازمان للإنسان، لا ينفكان عنه، ولا يفارقانه ما دام على قيد الحياة، ولكن الإلزام في حقه قد نحا به منحى لا يشاركه فيه غيره، وذلك تشريفاً له، وتفضيلاً عمن سواه، ففي الوقت الذي تبقى الوظيفة لازمة له، وهو مضطر إليها اضطراراً، إذ هي الأصل في خلقه، تنفصل عنه الصفة، ومرجع ذلك الانفصال إلى أن إلزام الله تعالى له بالتكليف فيه سعة من الاختيار المبرأ من جميع ضروب القهر والإكراه، ولهذا لا يقال في تكليف الإنسان إنه مضطر إليه أو مختار، بل الأليق لشرفه وسمو مقامه أن يقال هو مكلَّف على فرض الاضطرار.

وتأسيساً على ذلك يمكن للإنسان قبول التكليف الإلهي، ويمكنه في الوقت نفسه الامتناع عن قبوله، فإن قبله قبولاً صادراً عن ذاته بلا قهر، فأول ما يجب عليه هو تصديق الله تعالى بالصفة التي أخبر بها وأرادها لتكون محوراً للعلاقة التكليفية كلها، وهي صفة الخالق المكلِّف.

أما إذا امتنع بمحض إرادته عن قبول التكليف، فلا يجب عليه شيء. ففي امتناعه تكذيب لله تعالى فيما أخبر عن نفسه، وهو سبب كاف لاستحالة قيام أي علاقة بينه وبين الله تعالى تمتاز بصفة الخصوصية.

والتصديق في أبسط معانيه هو نسبة الصدق إلى الله تعالى فيما أخبر عن نفسه، أي الحكم على خبره بأنه حق، وأجل ما في الصدق والتصديق هو صدوره صدوراً ذاتياً عن الإنسان، بحيث يبلغ حد اليقين العلمي، فيتحول من صبغته المعرفية المجردة إلى اعتقاد جازم لا يحتمل التشكيك بأي حال من الأحوال، وذلك معنى الإيمان، لأن الاعتقاد ما هو إلا حركة قلبية من الإنسان بقصد الانتساب إلى الله تعالى وبالصفة التي يريدها عز وجل.

ولهذا السبب عد الإيمان مناطاً للتكليف الإلهي، به يحظى الإنسان بصفة المكلَّف،

وبه ينال مرتبة الشرف والفضل، وما يظهر من التصديق والاعتقاد في الوجود الخارجي هو (الإسلام)، لأنه بالإيمان ينتسب الإنسان إلى خالقه، فينتقل من عمومية الخلق إلى خصوصية الصلة. فيرتبط مع الله تعالى برابطة موثقة ودائمة، والإسلام هو المظهر الخارجي لذلك الانتساب ولتلك الرابطة، ولذلك تضمن معاني القبول والاعتراف والاستسلام والانقياد، وكلها ترجع إلى الإيمان محور العلاقة التكليفية.

وفي كل الأحوال فلا يسمى تكليف الله تعالى للإنسان، وقبول الإنسان للتكليف إسلاماً، إلا بعد الاعتراف لله تعالى أي الشهادة له بصفة هي أخص من صفة الخالق، وهي صفة المكلِّف، وبدون الاعتراف يسقط اسم الإسلام الاضطراري أو القهري، بلا نسبة لله وبلا انتساب إليه، فتزول من جراء ذلك كل المعاني السامية التي كان يمكن للإنسان اكتسابها بالإيمان، وتنحط منزلته حتى تتساوى بمن هم دونه في الرتبة، وربما تساوت بالعدم، وذلك صريح معنى الكفر.

وقد تجلى الإسلام بهذا المعنى في كل الأديان السماوية، وعند كل رسل الله وأنبيائه ممن أخبر بهم في كتابه العزيز، أما أولئك الرسل والأنبياء الذين لم يرد لهم ذكر في كتابه، فإن معنى الإسلام هو أبرز ما يواجهه الباحث في الدين الزرادشتي وذلك من خلال أمرين:

الشهادة لله تعالى بصفة أخص من صفة الخالق، وهي صفة الإله المعبود، أي الاعتراف له بصفة المكلِّف.

لا تتم طهارة النفس، ولا تبلغ مرتبة الكمال إلا بالعبادة، أي بالتكليف.

غير أن معالم الإسلام في الدين الزرادشتي رغم وضوح ذلك المعنى فيه قد توارت بعامل التحريف والتغيير خلف مفاهيم لا علاقة لها بوحي السماء، واختلطت بفعل النسيان والغفلة بعقائد لا صلة لها البتة بالإسلام، وما هو موجود اليوم لا يمكن الاهتداء إلى ما فيه من إسلام، وتلمس مافيه من حق، إلا بالإسلام دين الله الخاتم.

وذلك لأن كل دين الله هو إسلام أنزله الله على قدر حاجة الناس إليه، ثم ختم الله تعالى رسالة الإسلام بمحمد صلى الله عليه وسلم ليصبح هو الأصل لكل ما عداه من أديان وفي الوقت نفسه ليعامل كل دين معاملة خاصة وذلك لخصوصية مابقي فيه للناس من علاقة بالله تعالى.

والفصول التالية محاولة للكشف عن بعض معاني الإسلام في رسالة زرادشت لأهالي مادا وفارس قبل ميلاد المسيح عليه السلام بستة قرون من الزمان.



الفصل الأول
زرادشت: الرسول والرسالة

ينطق اسم زرادشت في اللغة الفارسية القديمة زاراشسترا Zarathustra[١] وينطق في اللغة البهلوية، وهي الفارسية في مراحلها المتوسطة زارتهسترا، ثم حرّفه اليونان إلى زراسترو، والحروف الأخيرة للأسماء البهلوية مهموزة دائماً، أي أنها تنطق منصوبة تقريباً، ولإظهار هذه الحالة يكتبون الألف في اللاتينية الحديثة، وعلى ذلك ينطق الألف الأخير في زراتهسترا بصوت يشبه النصب[٢].

والمؤلفات الفارسية تعرض اسمه بقراءات أو صور تهجئات مختلفة ومتنوعة، ولكنها بشكل عام تتفق مع القراءة البهلوية التي ينطق فيها الاسم بالتاء المفتوحة، أما المؤلفات الإسلامية[٣] فتتابع ما استقر عليه الاسم في عرف اللغة البهلوية، فينطق الاسم فيها بالتاء المفتوحة.

ومعنى الاسم يصعب القطع فيه، ولكن الثابت من واقع المقارنة بين الفارسية الحديثة والقديمة أن الكلمة الأخيرة من الاسم Ustra أو إسترا أو أوستر بمعنى جمل، وهي لا تزال تستخدم بنفس المعنى في الفارسية الحالية، مع اختلاف بسيط في نطق اللفظ وفي شكله. وتبقى الصعوبة كامنة في كلمة Zarath، وخاصة في وجود حرف الثاء اللثوية المهموسة التي لولاها لاتجه الفكر إلى زرا بمعنى الذهب، ولقاد الاسم بكامله إلى معنى صاحب الجمل الذهب أو «مالك جمل الذهب»[٤].

بيد أن المعنى برمته بعيد الاحتمال، وظلت كلمة زرا في صورتها البهلوية تتقلب بين شتى المعاني ولم تستقر إلى يومنا هذا على معنى بعينه، فتارة تأتي بمعنى عجوز فيترجم المركب من الكلمتين «صاحب الجمل العجوز» وتارة بمعنى أصفر أو سريع فيقفز الذهن إلى معنى «صاحب الجمل الأصفر، أو الجمل السريع»[٥].

وقد اتخذ القسم الأول من الاسم زرات Zarath معاني أخرى غير تلك، هي حصيلة طبيعية للغموض الذي اكتنف الكلمة من جراء قراءاتها المتعددة والمحرفة، فوردت الكلمة من مصادر أخرى بوصفها الفعل المضارع يعذب أو يعاكس، فترجم الاسم إلى

«معذب الجمل أو معاكس الجمل»[٦]. ووردت الكلمة نفسها بمعنى يسوس ويعالج ويمسك ويستعمل، فتوزع المركب بين معان عدة أصوبها «سائس الجمل أو الجمال»[٧].

انتقل الاسم إلى الشعوب المجاورة للفرس بمعنى يقرب من التفسيرات السابقة تارة، ويبتعد عنها تارة أخرى على حسب ما يتبادر إلى ذهن المترجم من معنى، فعرفوه بمعنى الجمل الأحمر، والجمل الكبير، وبمعنى النور الذهبي والنجم الساطع، وذهب الصحراء والذهب الملكي ومملكة الذهب والمغتسل بالذهب، ثم استقر الاسم أخيراً عند اليونانيين بمعنى «النجم الحي»[٨]. وهو أبعد التفسيرات عن الأصل في لغته الأولى.

ويكاد الإجماع ينعقد على أن موطن زرادشت هو إيران الشمالية، أي أذربيجان، إحدى المقاطعات التي استقرت عليها قبيلة ميديا Madia، وإليها ينتمي زرادشت، وقد أطلق الابتساق على كل المناطق التي استوطنتها القبائل المنحدرة من الأصول الآرية في مراحل نزوحها المتعاقبة اسم إيريانا فيجا Airyana Vaeja، فقال تعالى لزرادشت واصفاً هذه المنطقة:

«لقد جعلت كل مكان خلقت محط إعجاب أبنائه وافتخارهم، حتى ولو خلا من البهجة والسرور، ولو كان عارياً من أية فتنة وجمال ولو لم أجعل يازرادشت كل مكان يعجب أبناءه لاتجه الناس بأجمعهم إلى إيريانا فيجا Airyana Vaeja أول وأفضل المناطق التي خلقتها أنا الله»[٩].

تقع المنطقة المذكورة في الابتساق كما حددها القزويني ما بين نهر بلخ إلى منتهى أذربيجان وأرمينيا إلى القادسية وإلى بحر فارس، ثم وصفها قائلاً:

«هذه الحدود هي صفوة الأراضي وأشرفها لتوسطها في قلب الأقاليم وبعدها عما يتأذى به أهل المشرق والمغرب والجنوب والشمال»[١٠].

أما أهلها فهم:

«أصحاب العقول الصحيحة والآراء الراجحة والأبدان السليمة والشمائل الظريفة والبراعة في كل صناعة فلذلك تراهم أحسن الناس وجوهاً وأصحهم أبداناً وأحسنهم ملبوساً وأعذبهم أخلاقاً، وأعرفهم بتدبير الأمور»[١١].

دارت أغلب معاني كلمة (إير) وحدها والتي منها اشتق اسم المنطقة حول

صفات نبيلة وكريمة مثل الطهر والطهارة والشرف والسمو والمجد، وذلك لأن الكلمة في الفارسية القديمة هي اسم جامع للخير والفضل والصلاح، ومنها أطلق الفرس على رئيس بيت النار اسم (إيريذ)، أي رئيس الخيار الفاضلين، ثم عرب الاسم فقيل هربذ(١٢).

وعندما تجتمع كلمة (إير) مع الكلمتين اللتين يتشكل منهما الاسم، فيعني المركب منهما، وطن الخاضعين أو المطيعين، وذلك لأن كلمة (إيريا) تفسر في الفارسية القديمة بمعنى «المتدين والمطيع والخاضع»(١٣).

وعلى هذا فالاسم ينحدر انحداراً طبيعياً من عدة معان، يدور أغلبها حول الخير والطهارة والصلاح والتقوى والطاعة، ولا يضعف من معناه اضطراب مفرداته ولا كثرة دلالتها، فالخير والطهارة والصلاح والفضل في طاعة الله، والخضوع لأحكامه، ومن اجتمعت فيه تلك الخصائص سمي متديناً، واشتهر بين الناس بقربه من الله تعالى.

ينتمي زرادشت بإجماع الثقات من المؤرخين إلى قبيلة ماداي أو ميديا، كبرى القبائل الآرية التي استقرت في منطقة إيريانا فيجا، ثم نسب فيما بعد إلى قبيلة Parsa أو برسيس Paesis إحدى القبائل الآرية التي تماثل ميديا في القوة والمنعة والكثرة، ومهد الأسرة الأليخانية التي استطاعت توحيد إيران في دولة واحدة، واتخذت من الزرادشتية ديناً رسميا للدولة، وعلى هذا فزرادشت ميدي الأصل وآري الجنس.

أما إذا أردنا تحديد الزمن الذي ولد فيه زرادشت، فإن المادة العلمية المتوفرة بين أيدينا لا تساعدنا بالقدر الذي يجعلنا نؤسس معرفة يقينية نطمئن إلى صدقها وصحتها، لأن المصادر بشقيها البهلوي والساساني تستند في مجملها إلى أخبار ليست في الأصل تاريخية، ومن ثم فهي ليست موثوقاً بها.

والزمن الذي حدد لتاريخ ميلاده ما بين سنة ٦٠٠٠ ق.م وسنة ٦٠٠ ق.م لا يجوز قبوله بسهولة نظراً لتطرفه ولبعده التام عن الفترة التي حكم فيها الملك كشتاسب ايران من بلخ(١٤)، أي في النصف الثاني من القرن السادس قبل الميلاد.

تتبع مؤرخو الزرادشتية المعاصرون من المجوس حكم الملك كشتاسب منذ توليه السلطة حتى السنة التي استجاب فيها لدعوة زرادشت ودخل في الدين الذي

دعا إليه، عندها توقفوا وجعلوا منها منطلقهم الأساسي، ومنها كروا عائدين إلى السنة التي أوحى فيها إليه، ومنها حتى عام ميلاده، وبعد عمليات حسابية طويلة ومعقدة تستند إلى تلك الوقائع المشهورة في تاريخ الرسول ورسالته، وضعوا تقويماً جديداً للدين وتاريخه خلصوا منه إلى أن نبيهم ولد بالتحديد في اليوم التاسع من شهر خرداد، الذي يوافق اليوم الثلاثين من شهر مايو لسنة ٦٦٠ ق.م[١٥].

إن الدقة المتناهية في تحديد اليوم والشهر والسنة لماض موغل في القدم لم تؤسس هي الأخرى على مصادر تاريخية موثوق بها، ولذلك تنحصر فائدتها فقط في ضبطها وتقيدها بشكل عام للعصر الذي بعث فيه زرادشت، وتحديدها للمساحة الزمنية التي تحرك فيها داعياً قومه إلى دين الله، وفيها من القوى ما يجلو كل غموض عن زمان الرسالة.

أما مكان ميلاده بالتحديد فأمره سهل وميسور، وذلك لالتقاء المصادر بأجمعها على تأكيد أنه ولد في الناحية الشمالية من إيران، أي أذربيجان، وعلى مقربة من بحيرة أورميا Urmia، وبتحديد أدق إلى الغرب منها[١٦]، وعلى شاطئ نهر داريز أو أراس[١٧]، وقد اعتبر نهر أراس في الابتساق رئيس الأنهار[١٨]، ووصف في الكتب المجوسية المتأخرة بالنهر المقدس، إذ على شاطئه بنى بوراشاسب بيته، وفيه ولد زرادشت.

حفل ميلاد زرادشت بمجموعة ضخمة من الظواهر الخارقة للعادة تصل في أحيان كثيرة إلى ما قبل زواج أبيه بأمه دغوية، ثم تزداد كثرة وشذوذاً قبيل ولادته بأيام قلائل، وقد لعب فيها الخيال الشعبي المفتون بالمعجزات والمبهور بالخوارق دوره بالكامل، وزادتها الصنعة والتكلف الكريه بعداً عن كل مألوف ولائق في حق المبعوث أو المرسل الإلهي كما يصفه المجوس[١٩]، حتى عدت من صنف الأساطير الشعبية التي عادة ما تشيع وسط العامة إجلالاً لشأن الرسول وتعظيماً لقدره.

وما يهمنا من تلك الظواهر كلها ما ارتبط بلحظة الميلاد وحدها؛ إذ هي من العرف مما يظهره الله تعالى لخاصة قوم المبعوث إعلاناً وتبشيراً لهم بمقدمه الميمون. وهي ظواهر وإن جاءت خارقة للعادة، لكنها في حق المرسل لا تنافي العقل ولا تخل بما استقر في مألوف الناس. ولهذا روت المصادر البهلوية أنه قبيل خروج زرادشت بلحظات انبثق نور إلهي شديد اللمعان من بيت بوراشاسب، فرحت له الطبيعة، ومن

حولها ومن السماء سمع صوت يبشر بميلاده، في هذا الوقت وفي داخل غرفة الولادة المضاءة بالنور الإلهي خرج الطفل زرادشت للحياة وهو يضحك بملء فِيْه[٢٠].

وفي مراحل تدهور الدين وانحطاطه أقحمت في نصوص الابتساق طائفة من تلك الظواهر كدلالة على صدق نبوءة زرادشت، وعظم رسالته، تركز جلها حول محاولات الشيطان أهريمان وأعوانه القضاء عليه بعد ولادته، أقربها للقبول ما جاء في الفنديداد على لسان الشيطان لحظة ميلاده:

«لقد ولد يا حسرتاه زرادشت الطاهر في بيت بوراشاسب، كيف السبيل إلى هلاكه وموته، إنه السلاح الذي يضربنا بقوة، إنه مصيبتنا الكبرى، ستزول من الأرض عبادة الشياطين، سيختفي الكذب والزور من بين الناس»[٢١].

الطفولة والصبا والشباب:

عند بلوغ زرادشت سن السابعة من عمره أرسله والده كعادة الناس في زمانه ليدرس على يد (غورو بورجين كروس)، وكلمة غورو كانت تطلق عند الميديين على الشيخ الحكيم من طائفة المجوس، وقد اشتهر بورجين كورس بالحكمة والعلم وسداد الرأي والإلمام الواسع بعلوم عصره، فكان محط أنظار طلاب العلم، ومطمع محبي المعرفة من جميع أنحاء إيران.

قضى زرادشت مع معلمه ثمانية أعوام بكاملها، درس خلالها مقررات عصره من العلوم فتعلم الفارسية قراءة وكتابة، وحفظ عقيدة قومه بأصولها وفروعها، وإلى جانب ذلك درس آداب زمانه شعراً ونثراً، انتقل بعدها لتعلم بعض الأعمال الضرورية كعلاج المرضى وإعداد الأدوية وتربية الماشية والزراعة وحذق فيها جميعاً لعظم حاجة الناس إليها.

بانتهاء فترة التلمذة بلغ زرادشت الخامسة عشرة من عمره، عاد بعدها إلى مسقط رأسه ليدخل بصفة رسمية في دين آبائه وأجداده، وطبقاً لطقوس الدين الآري القديم أقيم له احتفال حضره الأهل والأقارب تم فيه شد الحبل المقدس (كوستي)[٢٢] حول وسطه إيذاناً بفاتحة عهد جديد من حياته الدينية والدنيوية.

كان قدماء الفرس ينظرون إلى الحزام المقدس بوصفه قيد العبودية لله تعالى، وهو في إجراءاته وطقوسه الوثنية يشبه إلى حد كبير التعميد عند النصارى، وبنزول

الوحي على زرادشت جرد من مظاهره الوثنية وحل محلها معنى جديد يفيد بأن سن الخامسة عشر هي السن التي يخاطب فيها الزرادشتي بالتكليف، ولذلك وجب – كما سنرى – على الصبي الشهادة لله بصفة المكلّف ولزرادشت بصفة المرسل أو المبعوث الإلهي، بعدها يصبح الصبي مسؤولاً عن كل ما يصدر عنه من أفعال، والمعنى الجديد مطابق لما أقره الإسلام إذ اعتبر سن البلوغ هي السن التي يخاطب فيها كل مسلم بالتكاليف.

لأجل هذا توعدت نصوص الابتساق [٢٣] كل من تجاوز الخامسة عشرة من الرجال والنساء ومشى على الأرض بلا حزام، وكل من لم يحتفظ بالحزام مشدوداً في وسطه بالعقوبة الشديدة، وعدت كل من يفعل ذلك ناقص الإيمان، ويعين الشياطين على خراب عالم الخير، وتلك قضايا لا تغفر، وذنوب لا شيء يمكن إبطالها أو محوها من الوجود.

ولا شك أن هناك صلة وثيقة بين المعنى المجرد عن مظاهر الوثنية، وبين المعنى نفسه كما يفهم من مراسم تقليد الحزام، قد التبست على الزرادشتيين بمضي الزمن فلم يفرقوا بين المعنيين. مما نتج عنه إعادة تلك الطقوس كما كانت عليه قبل زرادشت، وأضيف إليها زيادات كثيرة تقرب في الغالب من معناها الرئيسي، من أميزها وأكثرها شيوعاً لدى مجوس الهند وإيران في وقتنا الحاضر ارتداء القميص الأبيض Sudreh.

وعلى الرغم من ذلك كله فإن مراسم تقليد الحزام المقدس تنبئ عن مدلول تعبدي خالص، مأخوذ من ميراث عميق الصلة بالدين والتدين، صحيح أن نسبته لوحي السماء قد ضعفت بمرور الأيام، وأفرغ المدلول التعبدي من بساطته وسموه، ولكن علاقته بمطلق خضوع تفصح عن المقصود، وهو التوجه للمعبود بعقل اكتملت قواه على الفهم والإدراك. واكتمال العقل – كما نعرف – هو الشرط الأساسي من شروط الاتصاف بصفة المكلّف، ومن لوازم صحة التكليف باتفاق الأديان جميعاً.

وفي كل ذلك دلالة على تشبع الفرس بروح الدين، وأن زرادشت قد نما وترعرع في مجتمع يغلب عليه التمسك بمنهج سلوكي ضابط لحركة الحياة وموجه لها، فتشرب منذ الطفولة الباكرة بأخلاقيات الدين ومثله العليا، وعندما تجاوز مرحلة الصبا واستوى شاباً ناضج العقل، مكتمل الوعي والإدراك، كانت الصفة المميزة له

على أقرانه. هي صفة التدين على البقية الباقية من دين الآباء والأجداد، فأمدته على ما فيها من بعد عن الدين الحقيقي بخصال الخير، وتطهير الروح وسموها، وفوق ذلك صلة طيبة بالإله الحق منبع كل خير وصلاح.

وصف زرادشت في شبابه بصفات الأخيار الصالحين، فعرف برقة الفؤاد، والعطف والرأفة والرحمة والكرم والتسامح والشجاعة والحلم ورحابة الصدر[٢٤]، وهي صفات مألوفة في زمانه عاش بها الناس، وجعلوها أساساً للمفاضلة بينهم، صاغته في قالب نوراني فتجلت على صفحة وجهه فزادته بهاء وإشراقاً، وكانت سبباً في رفع منزلته على سائر الناس.

لأجل ذلك جاءت شهادة المعاصرين لزرادشت ناطقة بتفرده، صريحة في تميزه، حتى ليخيل أنه خلق من طينة غير تلك التي خلق منها سائر الناس، فمما روي عنه إشاعته نزعة الخير فيمن حوله وبتلقائية محببة إلى النفس، وبطيبته الشديدة كان ينثر بذور الفرح والسعادة في كل من يقترب منه، أما عطفه على الفقراء، وحبه للمساكين فلا حدود لهما، فلم يكن يحتمل أن يراهم يكابدون شظف العيش، وقسوة الحياة، ومعاناة الآلام، وقد خصه الله تعالى بآذان مرهفة تكاد تسمع في أعماق الليل تنهدات الضعفاء، وأحزان المحرومين، وآهات المرضى والمكروبين[٢٥].

ومع هذا فلم يكن زرادشت الشاب يطيق آلام من هم دون الإنسان من مخلوقات الله كالحيوانات والطيور، فكم من مرة شوهد وهو يطعم الحيوان الجائع، والطائر الجائع، ويهرع لمعالجة الجريح، ويخفف عذاب المتألم وينقذ من أوشك على الموت.

إن النورانية التي امتلأت بها جوانحه كانت هي نفسها دافعه الأول للاستزادة من علم يسمو بروحه، ويزداد به قرباً من الحقيقة المطلقة، فعقب مرحلة التعلم تنقل بين حكماء البلاد وعلمائها عارضاً عليهم ما يعضل عليه من مشكلات، ومضيفاً إلى علمه ما عندهم من حكمة وأسرار، وكان يتردد في نفس الوقت على ملتقى الطرق التجارية ليتيسر له التحدث مع العلماء والرحالة والتجار، فتوفر له من علوم الشعوب فوق ما عنده من علم[٢٦].

ولما عرف عنه من هم في مقام معلميه شدة شغفه بالعلم، ورغبته النهمة في التطلع إلى العلم الحق، بينوا له أن ما ورثوه من دين الآباء والأجداد هو وحده الحق،

وما بقي لهم من وحي السماء هو وحده المعتبر في الاعتقاد والسلوك، ولكن زرادشت أدرك بنفسه درجة الجمود والركود التي بلغها الدين في زمانه، أما علوم الدين فمشدودة بإحكام إلى ماض بعيد أوصلها حد الموت، وأفقدها تماماً أي صلة لها بالحاضر، على حين يسعى هو إلى علم حي يحرك الحياة ويقودها إلى الأمام، علم يفي بمتطلبات الحاضر، ويكشف الحجب عن المستقبل البعيد.

فزرادشت إذن يتشوق إلى علم يحيا قوياً وفتياً في كل زمان، علم لا يهرم بتعاقب الايام، علم لا يؤسس على الشك والمدارسة والجدل والاستعلام. وبطبيعة الحال فعلم تلك خصائصه لا يمكن الوصول إليه بالجهد العقلي المجرد، إن زرادشت في الواقع يبحث عن العلم الإلهي، ويتطلع بلهفة إلى خبر السماء ووحي منها.

في هذه الفترة من عمره أغار الطورانيون على إيران وعاثوا فيها فساداً، فتطوع على الفور واضعاً علمه وخبرته في خدمة الجنود المقاتلين، وفي خدمة أبناء وطنه، فعالج المرضى وضمد الجراح، ورفع روح المقاتلين المعنوية في جبهات القتال، وحث الجميع على الصبر لدرء الخطر المحدق بالوطن، إلى أن انتهت الحرب واندحر الغزاة.

ولكن انتهاء الحرب لم يضع حداً لآلام الناس، فقد انتشرت المجاعة في جميع أنحاء البلاد واشتدت المعاناة، وزادت الفاقة بصورة أسوأ مما كانت عليه في أثناء الحرب، ومن جديد تطوع زرادشت لأداء دوره في خدمة الفقراء والمحتاجين، وانقضت خمسة أعوام كرس فيها كل وقته لذلك العمل النبيل.

وبعد انحسار حدة المجاعة عاد زرادشت إلى موطنه وبناء على رغبة والده تزوج من الفتاة (هانوية)[٢٧]، ولم يمكث مع زوجته إلا قليلاً رافضاً رغبة أبيه في الاستقرار والعمل بالزراعة وتربية الماشية، فواصل عمله في تخفيف آلام الناس، ومن خلال الفترة الطويلة التي قضاها بين الجرحى في ميادين القتال، وبين الفقراء والمحتاجين، تيقن أن آلام الناس وأحزانهم لا نهاية لها[٢٨].

الوحي

بلغ زرادشت – كما عرفنا – درجة عالية من التدين، ونال من العلم حظاً جعل حياته كلها منورة بنوره، وكل من الدين والعلم في أصولهما الأولى ومقاصدهما البعيدة، هما البقية الباقية من صلة قومه بوحي السماء، ومن الثابت أن الدين قد

تحول إلى أشكال عقيمة من العبادات والطقوس، وتمسك الناس بتقوى ظاهرة، وورع قوامه دماء القرابين والصدقات، وكثر بين أهل العلم والمعرفة الشك والحيرة والتردد، وشاع وسط الخواص والعوام الإيمان بالخرافات. وقدست في خاتمة التحلل من الدين الحق الأوثان والأصنام حتى عبدت من دون الله.

وحيثما اتجه زرادشت ذو الإحساس المرهف، والنفس الصافية، كان يجابه دوماً بالآثار السيئة لبعد الناس عن الحق والصواب، وبالعواقب الوخيمة لتنكبهم طريق الهداية والنور، اتضح له ذلك في ظلم الحكام وجورهم، وفي الفقر والعوز والإملاق، وفي السلب والنهب والكذب والغش والخداع، وفي الجريمة والرذيلة، وفي التعاسة والشقاء والبؤس، حتى فسدت الحياة، فانحدر فيها الإنسان إلى هاوية سحيقة لا ينتشله منها إلا هداية تأتيه من ذات المنبع الذي يصدر عنه كل نور وخير[٢٩].

عاش زرادشت على هامش هذه الحياة التي لا تطاق يوماً بعد يوم في أحزان متصلة وتفكير طويل في الإصلاح، ولكن لا أحزانه عادت عليه بشيء، وليس بين يديه وسيلة يصلح بها الفاسد، ويرشد الضال، ويقوّم المعوج، حتى طفح الكيل وفقد كل رغبة في العمل والعيش بين الناس، فوطن النفس على الاعتزال والاعتكاف بعيداً للتأمل والعبادة، وفي أحد كهوف جبل سابلان[٣٠]، حط رحاله، متخذاً من الكهف بيتاً له، ومن الحيوانات والطيور أنيساً ورفيقاً.

وفترة الخلوة والانقطاع والوحدة في حياة الرسل هي عادة فترة الإعداد والتهيئة لاستقبال وحي الله تعالى، ولذلك يطغى عليها طابع التجرد من كل الروابط التي تشد المبعوث بالدنيا، وفيها ينقى القلب ويتطهر من كدورات النفس، فيحدث له فراغ لا يملؤه إلا نور الله ووحيه.

وبعد انقطاع طويل عن الناس، وبينما كان يقف في فجر أحد الأيام على شاطئ نهر دايتي Daiti في مقاطعة أذربيجان هَمَّ بأخذ حفنة من الماء لغسل وجهه، فإذا بنظره يقع على رجل جميل الطلعة في ثياب لامعة بيضاء، ويحمل في يده عصا يشع منها نور مقبلاً عليه، أمعن النظر في القادم نحوه، فلم يجد فيه ما ليس مألوفاً، ورويداً رويداً أخذ القادم يقترب وزرادشت واقف في محله ينظر إليه بإمعان شديد، وعندما وصل إلى مسافة يمكن سماعه بادره بكلام قصد به إزالة وحشة اللقاء الأول في

منطقة لم يشاهد فيها أحداً، اطمأن زرادشت وانشرح صدره للقادم، في تلك اللحظة أخبره بأنه (فوهومانو Vohomano) كبير الملائكة، وقد أرسل إليه خصيصاً ليصحبه إلى السماء ليحظى هنالك بشرف المثول بين يدي الحق عز وجل[٣١].

وعلى الفور استجاب زرادشت إلى ما أمر به، فحمله الملاك إلى السماء، وأمام عرش الرحمن وضعه، ثم انسحب تاركاً إياه محجوباً عن رب العرش العظيم بنور باهر لم تقع عيناه على مثيل له، وكما تروي المصادر البهلوية[٣٢]، فقد قدم زرادشت بين يدي رب العزة فروض الإجلال والتعظيم، فأنبأه الحق عز وجل باصطفائه رسولاً ونبياً إلى خاصة قومه، ثم تلقى منه علم الدين. وأخيراً استمع إلى أمر الله له بإبلاغ قومه شريعته وبشارته لهم بسعادة الدنيا والآخرة.

لم يتفق الزرادشتيون على رواية واحدة لوقائع تلقي نبيهم أمر النبوءة وكيفية استقبال الوحي، والرواية السابقة منتقاة من عدة روايات، وهي الوحيدة التي تشابه وتماثل ما هو معهود ومألوف في استقبال رسل الله تعالى لوحيه، وفي تلقيهم لأمر النبوءة.

ففوهومانو هو ملاك الوحي لرسله، ولم يبعث لرسول أو نبي أحداً غيره، وتلقى زرادشت من ربه الرسالة وهو محجوب عنه بالنور الإلهي، وبلا واسطة، وما زاد على ذلك مما أسهبت فيه المصادر فلا يقدم ولا يؤخر في محاور النبوءة الأساسية.

ووفقاً للتقويم الزرادشتي الجديث فقد اعتبر اليوم الخامس من شهر مايو سنة ٦٣٠ ق.م والذي يوافق منتصف شهر أورتافاحستو[٣٣]، هو اليوم الذي أوحي فيه لزرادشت، واختير رسولاً ونبياً، وكان يبلغ من العمر ثلاثين عاماً[٣٤]، ولا يزال مجوس الهند وإيران إلى يومنا هذا يطلقون على السنة التي أرسل فيها نبيهم لأهالي مادا وفارس (سنة الدين)[٣٥]، أي السنة الأولى للدين.

الدعوة إلى دين الله

افتتح زرادشت دعوته لقومه ببيان حقيقة أركان النبوءة الثلاثة، المرسِل والمرسَل والرسالة، وذلك حتى تستبين لكل فرد ما جاء به من عند ربه، فالمرسِل هو الله، (أهورا مزدا) الخالق المكلِّف، والمرسَل إليهم هو زرادشت الذي يعرفونه، وبصفة

الرسول والنبي، ولا يتميز عنهم إلا باصطفاء الله له، وأما الرسالة فهي وحي الله والمضمن في كتاب فصل لهم فيه كل ما يتعلق بالتكليف وبالعلاقة التكليفية.

إن رسالة زرادشت مثلها مثل سائر رسالات الله للناس لم تؤسس على الأشكال المظهرية للدين – وهو ما كان سائداً في زمانه – وإنما أسست في الأصل على الإيمان القلبي بمظهرياته الكبرى، اعتقاد جازم لا يتطرق إليه شك، وقول وفعل مطابقان للاعتقاد.

أراد زرادشت بدعوته تلك أن يؤسس الدين كله على التقوى النابعة من القلب، وعلى الاستقامة المبنية على ضابط سلوكي وحركي له ثمرات من الحياة الدنيا وفي الآخرة. ولذلك فقد واجه قومه بحقيقة ما آلت إليه حياتهم، وكشف لهم عن الحد الذي بلغوه في البعد عن الأصول الصحيحة للسلوك الرباني. أما الدين الذي هم عليه فهو الوثنية في أقبح صورها، وأما شعائرهم فخاوية وفارغة من أي معنى تعبدي.

انزعج الكهنة ورجال الدين في بادئ الأمر من الدعوة في أصولها المبنية على التجريد المطلق وعلى عبادة القلب والجوارح، ليس لغرابة ما جاءت به، فهم رجال علم ومعرفة، ولكن لأنها جاءت بمنهج جديد في العقيدة والسلوك، وذلك يعني بصورة مباشرة تقويض أركان مجتمع قديم ليحل محله مجتمع جديد في منهجه وفي أهدافه.

من هنا كثف رجال الدين من محاولاتهم للالتفاف حول الدعوة الجديدة والقضاء عليها دون إثارة وبلا ضجيج، فأخذوه باللين والحسنى في البدء موضحين له ما في دعوته من تهديد لأمن وسلامة مجتمعهم، وما تتضمنه من تشويه لعقيدة الآباء والأجداد، وتسفيه لشعائر وطقوس ظلت تمارس لحقب طويلة من الزمان، ومن الخير له ولهم الكف تماماً عما يدعو إليه.

لم يذعن زرادشت لما أرادوه منه، بل واجه ادعاءاتهم وحججهم بالتفنيد والدحض والإنكار، فاضطروا مذعنين إلى حصر جهودهم في الحيلولة بينه وبين الناس، وحتى في هذا فشلوا فشلاً أدى إلى تحول الصراع بينه وبينهم إلى معركة صريحة.

تمكن زرادشت من خلال معركته الشرسة مع رجال الدين من عرض دعوته على الناس كما أرادها الله (هوزا مزدا)، وفي نفس الوقت استطاع إزاحة الغشاوة التي كانت تمنعهم من رؤية الطريق الصحيح والدين الحق، وبيّن لهم أن الدين الذي

يتمسكون به دين محرف وبعيد عن وحي السماء، ولا يصر عليه الكهنة إلا لأنهم المستفيدون الوحيدون منه. أما جشعهم وخوفهم من فقدان مراكزهم وسلطتهم في المجتمع فهو الذي يدفعهم لرفض ما جاءهم به من عند الله.

حمل لواء معارضة الدين الجديد كل من (بنفدا Penvda) و(جريهما Grehma) اللذين وصفهما زرادشت بالمرائين والمنافقين، وسماهما المتظاهرين بالتقوى، ويعد (بنفدا) لعظم مكانته في المجتمع، من أكبر المحرضين لرفض الدعوة وتعاليمها، وأول من نصح الحكام بضرورة طرده من البلد، طلباً للسلامة، وحفاظاً على عقيدة الناس.

وبطرده من مسقط رأسه تلاشت كل آمال زرادشت في قبول الناس لدعوته، فودع وطنه بقلب كسير، وأعين دامعة، وراح ينتقل في قرى البلاد ومدنها تسبقه إليها شهرته بأنه مدع وكذاب، ومعكّر لسلامة الجماعة، وسبّاب للآلهة، ومسفّه لعبادتها، فلم يجرؤ أحد على استقباله، ولم يجسر أحد على الاستماع إليه فأغلقت الأبواب في وجهه(٣٦).

واصل زرادشت دعوته لقومه بلا كلل، يدفعه حماس متقد ويقين راسخ بنصر الإله له ولدينه، وتوالت عليه الأيام والشهور وهو يبشر الناس بخير الدنيا والآخرة، فلم يجد آذاناً تصغي ولا قلوباً تؤمن، فوقف ذات يوم مناجياً ربه بمناجاة لطيفة يصف فيها حالته، قال:

«يا إلهي إلى من أهرب، وإلى أي البلاد أذهب. إن النبلاء والعظماء قد انصرفوا عني، ولم يستمع أحد من عامة الشعب إلى قولي، حتى هؤلاء الأفّاكون حكام البلاد الدجالون، أرشدني كيف أحظى برضاك وكيف أظفر بهداك، إني أدرك السر في خيبة آمالي وأعرف السبب في فشل مسعاي، إني رجل فقير، فلم يستمع إليّ إلا القليل وإياك أدعو إله الخير، وإياك أستصرخ مبعث النور، فامنحني العون والتوفيق، وأعنّي كما يعين الصديق صديقه، أرشدني إلى الطريق المستقيم المفضي إلى اكتساب التفكير السليم.

ربي متى ينبثق فجر الهداية والنور لهذا العالم من خلال تعاليمك المفضية إلى النجاة؟ أين هؤلاء الذين يمكن أن تمدهم هذه التعاليم بالسعادة؟ يا إلهي إني أضع فيك كل ثقتي فكن أنت نفسك عوناً لي على النجاح في رسالتي وتنفيذ ما به أمرتني»(٣٧).

نزل الوحي على زرادشت في فترة الدعوة سبع مرات، سميت في المصادر الإسلامية بـ «المخاطبات السبع»[٣٨]. وفي المصادر الحديثة بـ «الرؤى السبع»[٣٩]. تتابعت فيها عليه جملة من العلوم والمعارف تتعلق بالفرائض والسنن، والعقوبات، ويوم القيامة وما فيه من نعيم الجنة وعذاب النار وغيرها، وفي المخاطبة الأخيرة اكتملت الرسالة، فانقطع الوحي.

تلقى زرادشت كل ما أوحى به الإله إليه في خلال الأعوام العشرة من عمر الدعوة، وكان يحملها له كما يروي الشهرستاني[٤٠]، ملائكة الله، وتمت كلها إبان فصول الشتاء في الجنوب الغربي من إيران، إذ كان زرادشت في صيف كل عام يطوف بالبلاد مبشراً قومه بالرسالة، ويقضي فصول الشتاء في موطنه بين زوجته وأبنائه.

وطوال الأعوام العشرة لم يؤمن به أحد، وفي السنة الحادية عشرة ظهرت في الأفق طلائع الهداية، وبشائر قبول الدين لدى الناس، فكان أول مؤمن بدعوته هو ابن عمه (ميتيوماه Metyomah)[٤١]. ومضت سنتان كان فيها هو الشخص الوحيد المؤمن برسالة زرادشت، ورغم ذلك فقد مضى قدماً في جهاده، لم تضعف له إرادة، ولم تهن له عزيمة.

اقترن اكتمال الرسالة ببلوغ زرادشت سن الثانية والأربعين، عندها أمره الله بالمسير إلى الملك كشتاسب ملك إيران في عاصمته بلخ، ودعوته للدخول في دين الله[٤٢]. ولعل الحكمة في هذا الأمر بعد رفض وإنكار للدعوة امتد حقبة من الزمان تعود إلى طبيعة التكليف الإلهي، فهو يحتاج إلى نوع خاص من الناس أوتي حظاً من كمال العقل ومن قوة الإدراك تمكن من سبر غوره، وتصل إلى مقاصده القريبة والبعيدة، ولم يجتمع ذلك النوع من الناس في زمان زرادشت إلا مع الملك وحاشيته ومن يحيط بهم من المتعلمين، وهؤلاء إذا استطاعوا حمل أنفسهم على مقتضى التكليف بشقيه الاعتقادي والسلوكي تبعهم من دونهم في العقل والعلم والإدراك، إما تعلماً منهم أو تقليداً لهم.

عرض زرادشت فور وصوله على الملك كشتاسب كتاب الابتساق[٤٣] الموحى به إليه، ومجمل ما قدمه من بيان لحقيقة رسالته ينحصر في قوله:

«إني رسول الله إليك، وقد طلب منك رب العزة أن تقبل دينه وتعمل به، ولا يجمل بك أن تكون بغير دين، ولا ملكك من غير شريعة ربانية».

ثم قرأ عليه من الكتاب القدر الذي مكنه هو وحاشيته وثلة من علماء البلاد من إدراك جوهر ما ترمي إليه الرسالة، فأعجب به الملك، وأحدث في نفسه أثراً شعر بخطورته كل من رأى فيه تهديداً له ولمصالحه، فحيكت الدسائس والمؤامرات للإيقاع بين زرادشت وبين الملك وللحيلولة بين الناس وبين الدين الجديد، انتهت بالزج به في السجن مغضوباً عليه.

وشاء الإله نصرة الدين الجديد من حيث لم يحتسب أعداؤه. فقد كان للملك كشتاسب جواد أسود اللون، وكان الملك شديد الشغف به، وفي أحد الأيام التي كان فيها زرادشت محبوساً ذهب السائس إلى الاصطبل، فرأى أمراً غريباً ممعناً في غرابته لم ير مثله من قبل، رأى قوائم الجواد قد تقلصت ودخلت في بطنه، ولم يظهر منها إلا أطرافها.

استبهم حال الجواد على أطباء وحكماء البلاط، فلم يجدوا لمصابه سبباً ظاهراً، فكفوا يائسين عن محاولات علاجه، وفي الحبس سمع زرادشت بالواقعة، فأرسل يخبر الملك بقدرته على شفاء جواده المحبوب، والطريقة التي سوف يعالجها به هي آية دالة على صدقه، وعلى صدق من أخبره بها.

غير أن زرادشت لم يكتف بهذا وحده بل اشترط الإذعان لكلمة الحق، والإيمان بما جاء به من عند الله، إن هو دعا ربه وأخرج قوائم الجواد المستقرة في بطنه، فوعده الملك باعتناق الدين والدفاع عنه والعمل على نشره إذا هو حقق مراده بشفاء الجواد، فاتجه زرادشت بالدعاء والتضرع إلى الله فأجابه ربه على الفور وخرجت قوائم الجواد، وعاد إلى ما كان عليه[٤٤].

أذعن الملك لقوة الآية الربانية، ولكنه طلب من زرادشت برهاناً على صدقه، أي طلب معجزة دالة على نبوءته، وبالفعل حدثت المعجزة بمرأى من الجميع[٤٥]، فقد ظهر في القاعة فجأة نفر من الملائكة على هيئة فرسان يلبسون ثياباً خضراً، وهم في السلاح الكامل، خاف الملك من هؤلاء الفرسان، ومن جرأتهم على الاقتراب منه، عندئذ انطلقت ألسنة النيران تقول له ما مضمونه:

إن هؤلاء الفرسان ما جاؤوا يريدون به شراً، ولكنهم جاؤوا يبشرونه بطول العمر، وأن الله سوف يسبغ عليه كثيراً من النعم، وستبقى دولته قوية عزيزة ما دام

مستمسكاً بدين الله، أما إذا ضل وفجر ومكر واستكبر وارتد عن دين الله، أو لم يخلص في نشر الدين فإن حياته ستؤذن بالزوال وسيؤول أمره إلى خزي فاضح وستنتهي دولته إلى خراب عاجل.

آمن الملك بالله وبشريعته للناس وبزرادشت رسولاً ونبياً ثم دعا زوجته للإيمان فآمنت، ثم تبعهما جميع من في البلاط وعلى رأسهم إسفنديار أخو الملك وفراسسترا وزيره الأول، والحكيم جامسبا(٤٦)، وما إن انتشر خبر دخول الملك وحاشيته في الدين الجديد وتركهم للوثنية حتى سارع الرعايا إلى اعتناق دين ملكهم تأسياً به، واقتداء بخاصة قومهم من العلماء والحكماء.

تحدث الابتساق في شكله الأخير عن الملك كشتاسب فوصفه بـ «دعامة شريعة الله أو المساعد الكبير، والرفيق الطيب، والساعد الأيمن، والنصير الطاهر(٤٧)» وذلك لدوره المؤثر في إعلاء شأن الدين وكال له من المدح والثناء ما هو جدير به، نذكر منه على سبيل المثال ما جاء في اليسنا:

«لقد كان هذا الملك هو الذي صار لدين زرادشت دين الله اليد اليمنى، لقد كان هذا الملك هو الذي أنقذ الدين من السلاسل والقيود، فقد كان الدين من قبل لا معين له ولا ناصر، فأعانه ونصره، وكان الدين لا شأن له بين الناس فرفع من شأنه، وجعل له منزلة سامية، ومكانة كبيرة»(٤٨).

وتم التمكين الحقيقي للدين في اليوم الذي اعترف به ديناً رسمياً للدولة وعد الابتساق وحده المصدر الأساسي للشريعة وللتشريع في المجتمع كله، ومحور حركة الناس في الحياة بمختلف طبقاتهم، ونهض أولو العلم من بينهم بعبء تدريس وشرح وتفسير أمور الدين، أما المحافظة على الكتاب من التحريف والتغيير وسوء الفهم والتأويل فقد وكل بها طائفة من المتفقهين في الدين، اتخذوا من معبد في مدينة إصطخر مقراً لهم.

نهاية زرادشت:

قضى زرادشت السنوات التي تلت الاعتراف بالدين منهجاً للدولة الإيرانية القديمة في الطواف بأنحاء البلاد(٤٩) معلماً وشارحاً ما أنزله الله عليه، وداعياً الناس للتمسك بهدى الله، والامتثال الكامل لكل ما جاءهم به، وعندما نشبت الحرب مع

الطورانيين، كان زرادشت قد بلغ من العمر ما جعله ينقطع للعبادة في المعبد الرئيسي لبلخ العاصمة.

كانت الحرب مع الطورانيين تتجدد باستمرار، وقد شارك زرادشت في أيام شبابه في إحداها، وفي عهد الملك كشتاسب اندلعت الحرب بينهم كسابقاتها، ولكنهم في هذه الحرب تمكنوا بقيادة أرجاسب Arjasp(٥٠) من دحر الجيوش الفارسية في معارك متعددة توجت جميعها باحتلال عاصمة البلاد.

وفي أثناء اندفاع الغزاة التخريبي في شوارع المدينة، كان زرادشت كعادته يصلي في المعبد، دخل عليه في صومعته ثلاثة من الجنود، لم يفزع ولم ينزعج بل رحب باستشهاده شاهراً سيفه في وجوه المعتدين، تقدم نحوه الطوراني المعروف في المصادر البهلوية باسم Turbaratur أو توري براترازيش Bratraresh(٥١) فطعنه طعنة سريعة ومباغتة لم تقو شيخوخة الرسول على تحملها، فأودت بحياته في الحال.

قتل زرادشت وفقاً للتقويم الحديث المعمول به حالياً في عبادات مجوس الهند وإيران في اليوم الحادي عشر من السنة الثامنة والأربعين لدعوته، والذي يوافق اليوم الأول من شهر مايو لسنة ٥٨٣ ق.م عن عمر يقدره مجوس الهند في وقتنا الحاضر بسبعة وسبعين عاماً وأربعين يوماً(٥٢).

كان الملك كشتاسب وقت سقوط عاصمة بلاده في أيدي الغزاة في مدينة سيستيان Seisitan(٥٣)، وبمجرد وصوله نبأ استشهاد زرادشت حزن وأقسم على نصرة الدين وتقويته ما بقي على قيد الحياة، ثم ولى الحكيم جاماسف(٥٤)، حوارى زرادشت المقرب، وأفضل من تفقه في الدين خلافة زرادشت في القيادة الروحية للبلاد وفوض إليه أمر تفسير وشرح وحفظ الابتساق.

الفصل الثاني
أصول الدين

أطلقت الشعوب الآرية القديمة في الهند وفارس على الله تعالى اسم (ديو) بمعنى الإشراق والضياء، وفي فترة ليست بعيدة عن العصر الذي أوحي فيه إلى زرادشت أطلق الاسم نفسه على الظواهر الطبيعية المختلفة وعلى الأوثان كآلهة، وعندما اصطفي زرادشت رسولاً ونبياً لخاصة قومه أنبأهم بالاسم الحقيقي لله وهو (أهورامزدا) الإله الحق.

والاسم في أصوله اللغوية القديمة ليس بالغريب ولا بالجديد على من أرسل إليهم، بل كان موجوداً وشائعاً بصورته نفسها تلك وسط القبائل الآرية في إيران، مع اختلاف يسير في الحروف لا يؤبه له، وتقديم وتأخير في مقطعي الاسم لا يغير من معناه ولا من دلالته اللغوية، حتى إن الميديين اشتقوا من أحد مقطعيه (مزدا) اسم مازداكا Mardaka(٥٥) الذي ظل متداولاً بينهم إلى ما بعد عام ٧١٥ ق.م، والجديد الذي جاء به زرادشت هو دلالته على إله واحد متفرد بالخلق والإيجاد، ومجرد عن المشابهة والمماثلة بالغير، فالصفة التجريدية وحدها هي التي لم تكن معهودة ولا مألوفة في الاعتقادات الوثنية لأهالي مادا وفارس.

والأمر تعدى عند الفرس حدود المعرفة العادية بالله ليبلغ درجة من الإدراك العميق لحقيقة ألوهيته أدت بهم إلى الاعتقاد بأنه ليس إلهاً خاصاً بهم وحدهم أو بغيرهم، وإنما هو إله الناس جميعاً، وإله العالم كله، ولا غرابة في ذلك أبداً فالآشوريون من قبلهم سموا الله تعالى أسارا مازاس A ssara Masaz(٥٦)، وهو مساو في تركيبه لأهورامزدا، بمعنى (الله الواحد الحكيم) المرادف للمعنى نفسه الذي عرفه به الآريون.

ويذهب كثير من المؤرخين للزرادشتية(٥٧) إلى أن اسم أهورامزدا في تفرده الذي لا نظير له، هو من ابتداع زرادشت، وقد دعته الضرورة لاختراعه ليخالف به ما كان سائداً في زمانه عن آلهة متشابهة في الأسماء والأفعال.

والرد المباشر على ما ذهبوا إليه ينحصر في شيوع الاسم قبل مبعث زرادشت، فالناس – كما رأينا سابقاً – قد عرفوه به على اختلاف اعتقاداتهم وتنوع لغاتهم، فتقارب في النطق، واتحد في المعنى، وفي تجرده وصفاته، وفوق ذلك دلالته البينة على إله واحد كبير متعال.

إن اسم الله في لغة الابتساق القديمة مركب من ثلاث كلمات هي على التوالي (أهو) و(را) و(مزدا)(٥٨) وتعني مفردة أو مركبة عدة معان تدور ترجمتها الحرفية حول ثلاث كلمات فقط هي: أنا وموجود وخالق، وليس من السهل إعادة وتركيب وترجمة الكلمات الثلاث معاً، لا لشدة الغموض في أصولها الفارسية، وإنما لأن الكلمات الثلاث قد تفيد مضمون أو فحوى كلام، ولكنها لا تدل مجتمعة وفي ترجمتها تلك على اسم، ولا تنبئ عن مسمى بحيث يشار إليه إشارة وضعية اصطلاحية.

فالكلمات الثلاث إذن في أصلها القديم كلمة واحدة، تفيد كما يتراءى لنا من بعيد ما تفيده كلمة شهادة (لا إله إلا الله) في العقيدة الإسلامية، وآية ذلك أن تقدير معنى الشهادة هو (موجود) و(أنا) أو (أنا موجود) يستلزم بالضرورة نفي مطلق لأي وجود سوى وجوده تعالى، وفي نفس الوقت إثبات مجرد لوجود ذاته المتعالية.

ومركب الكلمة في الفارسية القديمة قريب من هذا، ويشير في مجمله لا تفصيله إلى الذات الأحدية المتفردة بالوجود الذاتي، والذي يعد كل وجود لسواها وجوداً عرضياً زائلاً، وتستقل هي وحدها بالوجود الحقيقي.

ومهما يكن من أمر فإن اقتران الوجود المطلق لله تعالى بالإنية (الأنا) جعل من هذا الوجود في الزرادشتية وفي الإسلام معاً وجوداً معرفياً بمعنى أن الإنية قد قيدت الوجود المطلق تقييداً معرفياً، فأصبح معنى كونه موجوداً، أنه معروف معلوم، والمقصود الحقيقي من وراء ذلك هو عدم خضوعه تعالى لأحكام العقل المجرد.

لذا فقد تقرر في العقيدة الزرادشتية – كما سنرى – أن الله تعالى لا يقدر على إدراك حقيقته عقل بشري، ولا يقدر على تصوره خيال، وأما الوصول إلى معرفة كنه حقيقة ذاته فضرب من المحال لا يقدر عليه عاقل رشيد، كل ما يدرك عنه هو ما سمى به نفسه من أسماء وما اتصف به من صفات، وهي التي عرفت في عقيدة الإسلام بأسماء وصفات الكمال اللائقة في حقه تعالى.

الله: الأسماء والصفات:

تتحكم في تعريف الله تعالى بنفسه للناس اعتبارات كثيرة من أهمها وأبرزها خصوصية الوحي لأناس بعينهم، ومحدودية زمانها، والغاية التي أنزلت من أجلها، فالتعريف بصورة أخرى مرهون بما يحقق تلك الأغراض وبالضرورة فليس ذلك إلا لله تعالى وحده.

وفي الزرادشتية يواجه الباحث عقبة لا يمكن تجاهلها، وهي أن المعرف بالله تعالى هو في الغالب الأعم زرادشت، ويتخذ في تعريف الله مسلكين:

- فإما أن يسأل ربه مباشرة عن ذاته وأسمائه وصفاته، فيجيبه ربه في حدود ما سأل عنه.
- أو يعرّف زرادشت به في سياق مناجاته ومخاطباته كما هو موجود في كثير من صفحات الفنديداد واليسنا.

إن أكثر الذين تعرضوا لفكرة الألوهية في الزرادشتية قد أسقطوا من مباحثهم أهمية تعريف الله تعالى بنفسه كركن جوهري في العلاقة التكليفية، وانساقوا وراء النصوص المحرفة، والبعيدة عن أصول الدين إلى اعتبار زرادشت أول نبي ورسول عرّف الناس ولأول مرة في التاريخ بالله[٥٩].

وما ذهبوا إليه أمر تكذبه وظيفة المُرسَل والتي هي عادة ما تقتصر في حدود إبلاغ الناس بوحي الله تعالى، وتعريفهم بالحق عز وجل وعلى قدر الحاجة إلى التعريف دون زيادة ولا نقصان.

وما فعله زرادشت – على الأرجح – تركز جله في أخبار الناس بحقيقة الله وكما أرادها، وبأسمائه وصفاته التي تناسب زمان الناس، وفي حدود ما تطيقه عقولهم، لتساعدهم تلك المعرفة على فهم واستيعاب موجبات ومقتضيات العلاقة التكليفية، فاستخدم في تعريفه لله تعالى اللغة المتداولة في زمانه، وبصور ذهنية تقرب معناها من مداركهم، وبتشبيهات وأقيسة مألوفة في حياتهم، متحرزاً في الوقت نفسه من النزول بالله إلى مستوى يخل بكمال أولوهيته، ويضعه على قدم المساواة مع مخلوقاته.

وفي عرضنا لذات الله أسماء وصفات اعتمدنا على ما تم جمعه وتدوينه وصياغته في العصر الساساني، وأُثبت الجانب الأعظم منه في الابتساق، وهو الوحيد

الذي يتحد تارة ويتقارب تارة أخرى مع ما جاء في العقيدة الإسلامية، أما ما شذ فلم نلتفت إليه إلا في أضيق الحدود.

ولذلك أبقينا على المعاني والصور الذهنية كما وجدناها، ليس فقط لقربها الشديد لما أخبر به زرادشت، بل لأنها الأصدق في التعريف بالله في ذلك الزمان البعيد ولأولئك الناس وحدهم.

جاء في الابتساق أن الله نور وضياء لا يوصف، ولا مثيل له في لمعانه وإشراقه، وهو مصدر الأنوار كلها، ولذلك فهو لا يراه شيء، ولكنه يرى الأشياء كلها، لا تخفى عليه خافية لا في الأرض ولا في السماء.

والله واحد وأحد لا شريك له في ملكه ولا ينازعه فيه أحد، ولا منافس له في السيادة، وهو الكمال المطلق، وهو الأكبر الذي لا يعرف من هو أكبر منه، وهو القيوم الذي لم يسبق له مثيل، وهو رب العالمين، ومحرك الأشياء جميعاً.

والله لا يحده زمان، بل هو فوق الزمان، وهو الآن كما كان عليه من قبل، ليس له بداية ولا نهاية، ولا يوجد في زمان لم يكن فيه ثم كان، وسيظل كما هو ليس قبله شيء ولا بعده شيء، فهو الأول والآخر، وهو القديم، وهو الأزلي والأبدي.

وهو موجود قبل العالم، وسيبقى بعد فناء العالم، وهو حاضر في كل شيء، وظاهر في كل شيء، ولكنه يعز على الإدراك والإحاطة، إذ هو في غيب ومحجوب بنوره عن الحواس، ولا سبيل إلى معرفته إلا بالعقل.

ترتب على تنزيه الله عن المشابهة والمشاكلة في الذات وفي الوجود تنزيهه أيضاً عن سمات التجسيم وعن شوائب المادة، وعن مظاهر التغيير والتبديل والتأثر والانفعال، بل هي كما تقرر في العقيدة الزرادشتية مستحيلة في حق ذاته المتعالية عن كل حد ونظير، فالله كما يقول زرادشت لم يلد ولم يولد، ولن يموت، ولا ينام (الساهر)، ولا يرى في جهة، ولا يحصره مكان ولا يلمس.. إلى غير ذلك مما تعالى الله عنه.

ومع هذا التنزيه المطلق فالله لا يرمز إليه برمز، ولا يشار إليه بشيء مادي، ولا يجوز تصويره في شكل أو هيئة، مادية كانت أو معنوية، إذ في كل ذلك نزول به من مرتبة الألوهية المجردة إلى مرتب المحسوس المدرك.

ولا يعني تنزيه الله ثنائيه وبعده عن خلقه، فلا يأنس إليه عباده، ويستوحشه كل إنسان، بل هو قريب لا يتعب عبد بالبحث عنه، ومعروف فلا ينفر منه إنسان ومشعور به بحيث يمكن إقامة علاقة حميمة معه تبنى على الإحساس بالألفة والأنس والحب والتعظيم.

أما صفات الله فمتناثرة على صفحات الابتساق وأغلبها يرد في الفنديداد واليسنا، تارة ترد صريحة، وتارة أخرى ترد الصفة الواحدة في سياق عام تفهم من خلاله، والصفات في الحالتين تفيد المعاني المتعلقة بذاته والحالات التي هو عليها، وهي في دلالتها ليست أعراضاً أو حالات طائرة، وإنما هي (جوهر ذاته)[٦٠]، ومن ثم أخذت من خواص الذات الإلهية التجرد والتنزه عن المثيل والشبيه.

أثارت تلك الحقيقة عن صفات الله دهشة وإعجاب علماء مقارنة الأديان، لأن صفات الله كما عرضت في الابتساق لا تشذ في المعنى وفي التعلق عما جاءت به رسالة الإسلام الخاتمة، والدين على نشأته كما يرون دين بنيت العقيدة فيه على أساس الثنائية إذ يسوده الصراع بين قوى متنازعة تسعى كل منها للسيطرة على العالم.

وصفة المكلِّف هي أول صفة تعينت في العقيدة في الزرادشتية فوصف زرادشت الحق عز وجل بأنه «الآمر بالقوانين» أو «واهب ومعطي القوانين»[٦١]. والوصف هنا ليس موقوتا بزمانه هو، ولا مقيداً برسالته، وإنما هو كما يقول «منذ أن خلق الإنسان وخلق العالم»[٦٢] أي الصفة له بحكم ألوهيته.

وكمال صفة المكلِّف مرتبط بالضرورة بما أسماه زرادشت «بقوانين الجزاء والمكافآت»[٦٣] أي الثواب والعقاب بوصفهما الثمرة الطبيعية للعلاقة التكليفية، والغاية الكبرى من التكليف، فإذا اختار المكلَّف سلوك طريق يطابق ما أراده الله تعالى كافأه على اختياره بالجنة، وإذا ما خالف في حركته وفي اختياره ما أراده الله له عوقب بالنار.

وقد أسس الثواب والعقاب في الزرادشتية كما هو الحال في الإسلام على العدل والرحمة[٦٤]، فالله يكافئ الطائع ويثيبه على أدنى خير يصدر منه بعدله ورحمته، وينظر إلى المذنب والمخطئ النابذ لقوانين الله نظرته إلى مريض في حاجة إلى إصلاح

وتطهير. والحق عز وجل بعدله يعاقبه على ما اقترف من خطايا، وبرحمته يتجاوز عما ارتكب في حقه، ولا يخل ذلك في الحالتين بعدل الله ولا برحمته.

فإذا تضمنت صفة المكلِّف معاني التأليه والألوهية والعبودية لله فلا شك أن صفة الخلق والإيجاد تتضمن معاني الربوبية والمالكية والسيادة والإنعام، وقد نص سفر اليسنا[٦٥] على أن الله هو وحده الخالق والمبدع للأشياء جميعاً، والمخلوقات قبل خلق الله لها لم يكن معه منها شيء. ثم خلقها وأبدعها باختياره ومن غير مثال سابق، لغاية مقصودة ولهدف مراد، لا عبثاً ولا لعباً ولا لهواً، ولذلك انتفى من خلقه تعالى كل ما يدل على عدم الحكمة والاستخفاف.

ومخلوقاته تعالى نوعان:

- نوع خُلِقَ تحت هيمنته المطلقة، ووضع مقاليد أموره في يديه، كالسموات والأرض والجبال والشمس والقمر والليل والنهار والماء والنار والنجوم والكواكب والرياح والحيوانات والنباتات والجمادات.
- ونوع خصه الله بالعقل وأنعم عليه بالعلم كالجن والملائكة والإنس. ومن هؤلاء خص الإنس وحدهم بخلقة ارتقوا بها على أولئك في المنزلة، إذ تفضل عليهم بروح من عنده، وركب فيهم العقل والقدرة والفكر والحواس لتكون لهم في الحياة حركة ذاتية بإرادة واختيار منهم، ثم شرّفهم بالوحي الإلهي والخطاب التكليفي لينوبوا عنه في الأرض، وليكونوا خلفاءه على ما دونهم من خلقه.

وصفة الخلق وثيقة الصلة في الزرادشتية بصفة التأثير[٦٦]، فقد أكد سفر اليسنا على أن الله وحده هو المؤثر في كل شيء، وهو المصدر الحقيقي للموجودات قاطبة، فكل ما في العالم من حركة أو سكون، خير أو شر، حسن أو قبح، سعادة أو شقاء، موت أو حياة، فمرده إلى الله. والله هو الذي يسوق الرياح والسحاب، وهو الذي فطر الأب على محبة ابنه وهو الذي غرز في الحيوان الرأفة والرحمة على صغاره، وما من شيء في الوجود أو الخلق، قل أو كثر، عظم أو صغر، إلا مرجعه لله.

وبدون الله – كما ينص سفر اليسنا – لا يبقى موجود، وبه يحيا كل مخلوق[٦٧]، وهو يشير بذلك إلى صفة الحافظ والحفيظة، أي أن الله هو الذي يبقي

الحياة في أبدان مخلوقاته لأداء دورها في الوجود، وهو الذي يفنيها ويعدمها إذا أدت وظيفتها، وأتمت مهمتها في حدود ما هي مخلوقة له.

ومن صفتي المكلِّف والخالق تفرعت صفات وأسماء عديدة لله وردت في الابتساق وفي شروحات الابتساق في العصر الساساني نذكر منها، الواحد الأحد، القدوس، النور، الكريم، الأزلي، رب الأرباب، مالك الملوك، الكبير، الجميل، المنعم، نصير الأطهار، غافر الذنب، القوي، القهار، الغني، الكامل، الشريف، الشافي، المعافي، المانع، الجامع، الطيب، المنتقم، العطوف، السيد، الحسيب، شديد العقاب.

وصفات الله – صفات الألوهية والربوبية – ترجع إلى ثلاث صفات عرفت في العقيدة الإسلامية بأمهات الصفات وهي العلم والإرادة والقدرة، وفيما يلي عرض مقتصر لكل من العلم والقدرة باعتبارهما الأكثر تداولاً في الابتساق وفي مصادر الزرادشتية.

إن خصوصية العلم الإلهي وسموه ساقت مترجم النص البهلوي للابتساق إلى التعبير عن علم الله بعبارات عدة من أدقها قوله: إن الله كلي العلم، وكثير العلم، والعليم العالم بكل شيء، والمحيط بكل شيء(٦٨).

من هذا يتضح شمولية العلم الإلهي، فالله – كما يفهم من عبارات المترجم – يعلم الماضي والحاضر والمستقبل، ويعلم ما توسوس به نفس الإنسان، ويعلم ما في أعماق قلبه، ويعلم ما صغر وما كبر من خلقه، فليس هناك أسرار تخفى عليه، ولا أحداث تجري من ورائه.

ومن صفة العلم اتصف الله بالحكمة فسمي الحكيم، واتصف بالخبرة فسمي الخبير، واتصف بالبصر فسمي البصير الذي يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار(٦٩).

أما صفة القدرة الإلهية فقد صيغ معناها بعبارة «ليس في حاجة إلى شيء»(٧٠) وهي مطابقة في المعنى للعبارة الإسلامية الغني المطلق في غناه، والذي لا يحتاج ولا يفتقر إلى شيء، وكل شيء محتاج إليه في ذاته وفي صفاته.

وقدرة الله هي التي يشرئب إليها كل الناس لتشد من أزرهم وتقوي من نفوسهم لمواجهة ابتلاءات الحياة، وهناك لحظات في حياة كل إنسان يشعر فيها بضعف في قواه، ويعاني من تخلي الناس عنه، وخذلانهم له، ولذلك فهو يحتاج إلى

قوي مقتدر يستند إليه، ويستمد منه الطاقة التي تعينه وتساعده في حياته، والله وحده هو الذي يقوي ويعين ويساعد كل من يلجأ إليه طارحاً بين يديه ما عنده من حول ومن قوة.

والله رحيم بأولئك الذين يفزعون إليه في حالات الحزن والكرب والبلاء، وليس سوى الله من يقي الإنسان من مكابدة الآلام، ويفرج همَّ الحيارى، ويمسح دمعة الباكي، والعبد مهما فعل فلا يخرج عن رحمة الإله، لأنه لا ينظر إلى عبده من خلال ما يصدر عنه من أعمال، وإنما ينظر إليه من خلال ضعفه وقلة حيلته.

لأجل هذا فقد وصفت إرادة الله في الابتساق بأنها «قاعدة الخير»[٧١] فكل ما يصدر عن الله هو خير لا شر فيه، وخيره يشمل جميع خلقه، المؤمن والكافر، الطيب والخبيث، الحيوان والنبات، وهو يرأف بكل من يتوجه إليه في اليسر والعسر.

وخلاصة ما تقرر في العقيدة الزرادشتية عن الإله لا يخرج في مجمله عن كونه تعريفاً بالله بصفة أخص من صفة الرب الخالق، هي صفة المكلِّف، الصفة الأصل لسائر الصفات والأسماء الإلهية، والزرادشتية في هذا التعريف تتفق مع الأديان الكتابية، وذلك لأن في وضوح معرفته بصفة المكلِّف وضوحاً في العلاقة بينه وبين الإنسان المكلَّف، ووضعاً لها في إطارها التعبدي الصحيح.

لكل هذا أوجبت الزرادشتية على كل مخاطب بالتكليف الاعتراف بالله بصفة المكلِّف الخالق، أي الإيمان بالله بصفة الألوهية كأول خطوة في بناء العلاقة، وقبل التسليم والانقياد لمطلوبات التكليف الإلهي، وبعد الإيمان دعت إلى «عبادة إله واحد هو الله[٧٢]، وحثَّت في الوقت نفسه على «هجر المعتقدات الوثنية»[٧٣] المتمثلة في عبادة الأصنام والقوى الطبيعية.

والنتيجة الطبيعية التي نخلص إليها من الاعتقاد في إله واحد، والتوجه إليه وحده بالعبادة، هي أن الدين كله يقوم على أصول من التوحيد الخالص، وفي أنقى صوره، وأبسطها، فكما رأينا من قبل ليس هناك إلا اعتراف وإقرار بإله واحد أحد، لا شريك له، ولا مثيل له، ولا شبيه له، لا في ذاته ولا في صفة من صفاته، وهو خالق كل شيء، وأي ادعاء لقوى أخرى تشاركه في الخلق والإيجاد والتأثير فادعاء باطل تدحضه بديهيات العقل، وثوابت العقيدة الحقة.

لأجل ذلك أطلق الزرادشتيون على دينهم اسم «دين مزديسنا Mazdayasna[٧٤] أي الدين الذي يؤله الإله الواحد الأحد، ومن بعدهم سماه الإسلاميون بـ (دين مارسيان)[٧٥] أو (الدعوة إلى دين مارسيان)، بمعنى الدين الذي يدعو إلى تأليه الإله الحق، وذلك لما لاحظوه من وضوح لفكرة التوحيد في دينهم، فلا غرابة بعد هذا أن سماهم الناس قديماً وحديثاً بالمزديين أو المزدايسنين[٧٦]، أي الموحدين الذين يعبدون الله وحده ولا يشركون به شيئاً.

الثنائية في العقيدة الزرادشتية:

إن التوحيد في مفهومه البسيط والنقي هو إفراد الله تعالى بالألوهية، ولا يفقد التوحيد بساطته ونقاءه إلا عندما يؤسس عليه الموحد اعتقاده في الله، حينها يتمايز التوحيد الصحيح والخالص عن التوحيد الذي اختلط بمفاهيم غريبة من صنع المعتقد شوهت بساطة الفكرة ونقاءها، ذلك لأن الاعتقاد المنبثق من التوحيد هو التسليم لله تعالى بالوحدانية، أي بالحالة التي هو عليها من حيث هو واحد وأحد ومتوحد.

والوحدانية بالمعنى السابق هي التي أسس عليها الاعتقاد في الزرادشتية، غير أن أغلب المؤرخين والباحثين في أصول الدين قد أساؤوا فهم الأصل الذي أسس عليه الاعتقاد، ويتمثل سوء فهمهم في نظرتهم إليه في ضوء فكرة الصراع الدائم، والحرب الضروس بين قوتين تجاهد كل منهما للسيطرة على الأخرى لتستقل بالوجود الدائم الأبدي، وهما قوتا النور والظلام، والخير والشر، والحق والباطل، والطهر والدنس، ومنها انتهوا إلى القول بأن الأصل في الاعتقاد الزرادشتي قائم على الثنائية وليس على التوحيد.

وما كان لهؤلاء طرح ما انتهوا إليه بتلك الصورة البعيدة عن الحق لولا أن الزرادشتية التي بين أيديهم قد اختلط فيها الحق بالباطل، فوحدت بين ألوهية الله تعالى وبين قوى النور والخير توحيداً جعل منها قوة واحدة في الفاعلية وفي التأثير، ويصدر عنها كل ما في العالم من خير وطهر وحق، وفي مقابل ذلك وحدت أيضاً بين فكرة الشيطان (أنغرامي نيوش – أهريمان) وبين قوى الظلام والشر كقوة واحدة مضادة ومناوئة للقوة الأولى ويصدر عنها كل ما في العالم من شرور وآثام ومفاسد وويلات.

وبالضرورة فإن ذلك التوحيد المفتعل بين تلك القوى يؤدي إلى تصور قوتين متوازيتين في السيادة على مظاهر الوجود، ومتشابهتين في الخلق والإيجاد والإعدام، فكان من الطبيعي إطلاق ذلك الحكم المشهور على فكرة التوحيد في الزرادشتية، وهو أنه مؤسس على مبدأين، النور والظلام، والخير والشر، ومن ثم فالاعتقاد كله ما يتفرع عنه إيمان وتصديق قائم على الثنائية.

وهناك حقيقتان غابتا عن أغلب المؤرخين والباحثين وتؤيد كل منهما وحدانية الله وتفرده، وتدحضان في الوقت تلك الثنائية المزعومة كأساس للاعتقاد وهما:

- أن القوتين المؤثرتين في الوجود على ما بينهما من صراع وحرب، هما تحت سيطرة الله تعالى وطوع إرادته، فالقوى الخيرة النافعة، والقوى الشريرة الضارة، تنفذ أوامر الإله، ولا تخرج مطلقاً عن سلطانه وقهره، وليس لذلك إلا معنى واحد وهو أن أهورامزدا وحده هو المؤثر في القوتين وبلا مشاركة في التأثير من أحد.
- أن الصراع الدائم بين القوى المتنازعة سيحسم في النهاية بالنصر والغلبة لصالح قوى الخير والنور، وستدحر قوى الظلام والشر إلى هاوية لا قرار لها، وقدرت مدة الصراع في المصادر الزرادشتية باثني عشر ألف سنة، هي الأجل المضروب للدنيا، يدخل بعدها الخيرون الجنة، ويهوي الأشرار في النار، وينفرد الإله وحده بالبقاء.

فكرة التوحيد إذن فكرة قوية في الدين لا تكاد تخفى على أحد، والثنائية التي خدع بها الكثير ليست منبثقة في الأصل من التوحيد، وإنما من فكرة الصراع والتنافس بين قوى متوهمة، ولعل هذا ما قاد بعض الباحثين إلى التحفظ تارة والاستدراك تارة أخرى في أصل الاعتقاد الزرادشتي، فقال جماعة منهم إن الثنائية في الدين نظرية(٧٧)، ومال آخرون إلى تأكيد أن الثنائية هي ثنائية في الظاهر فقط(٧٨).

وعلى أي حال فالعقيدة الزرادشتية – كما بينها زرادشت لقومه – لم تصرح بوجود إلهين اثنين، متكافئين في القوة، ومتصارعين في الوجود، وإنما صرحت فقط بوجود إله واحد متفرد بالخلق والتأثير، لا ينازعه أحد في ملكه، ولا شريك له في

ألوهيته، أما وجود قوى كالنور والظلام، والخير والشر، والحق والباطل، متضادة في أصل خلقتها، ومتنازعة في حركتها، وممتزجة في الوجود، فهي كما يقول زرادشت[٧٩] مبدأ موجودات العالم، ومن امتزاجها وتنازعها خلق العالم، كما هو عليه، ولو لم تكن هكذا ممتزجة ومتصارعة لما كان العالم، ولما كان للموجودات معنى، والله هو الذي أوجدها قوى مستقلة في الوجود بالفعل والحركة، لحكمة وغاية رآها في اختلاطها وفي تركيبها وفي تنازعها.

وبرغم ذلك فلم يغفل زرادشت عن أن الوجود الحقيقي هو لقوى الخير والنور والحق، أما الظلام والشر وما يماثلهما في الفعل فتوابع لازمة لهما، وليس لهما وجود حقيقي، وشبه تبعية الظلام والشر للنور والخير بالظل للإنسان، فعادة ما يرى أنه موجود وهو ليس بموجود، فخلق الله النور والخير، وخلق تبعاً لهما الظلام والشر، إذ رأى أنه لا قوام للوجود إلا في التضاد، وبالتضاد تنسجم الحركة في الوجود وتتكامل عناصر الحياة.

وإذا كانت الضرورة الحياتية والوجودية قد اقتضت التضاد فإن الضرورة التكليفية أيضاً قد اقتضت وجوده بالذات لا بالتبع، لتقف بإزائه قوة هائلة أودعها الله تعالى في الإنسان هي كما يقول زرادشت قوة الإرادة الحرة[٨٠]، والتي جمع الله فيها كل المعاني التي صار بموجبها الإنسان إنساناً، كالعقل والمعرفة والوعي والشهوة والروية والتمييز والحكم والحاجة والأمل وغيرها، ليكون الإنسان كامل الحرية في الاختيار وفي الحركة، ولتكون كل حركة يتحركها فيها التعبير الحقيقي عن ذاته، وتنسب إليه نسبة تامة لا يقدح فيها شيء.

وبالإرادة وحدها يكتمل الإنسان المكلَّف، وبحرية الإرادة في الاختيار تبرز في الإنسان ذاتية خاصة هي التي اكتسب بها السيادة في الوجود وسمت به تلك المعاني مجتمعة فوق التضاد وفوق الصراع والتنازع، إذ أن الغاية التي من أجلها خلق وكُلِّف أجل وأكبر من تقييدها وحصرها – كما تذهب الزرادشتية في مراحل تدهورها وانحرافها – في وقوف الإنسان إلى جانب إحدى القوتين المتنازعتين، وفي وقوفه إلى جانب إحداهما نزول به من مقام المكلَّف الرفيع إلى ما دونه في المقامات، فيتساوى في القدر والأهمية مع القوى المقهورة لله تعالى والمسيَّرة بلا إرادة ولا تمييز.

الملائكة:

الملائكة في الزرادشتية كما في الإسلام أجسام نورانية[٨١]، لا يرون إلا وهم على هيئة مألوفة، وهم أخيار ذوو حياة وعقل ووعي وحكمة، وخالدون لا يعتريهم فناء، ولا يطرأ عليهم تحول أو تغيير، ولا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون، وموطنهم السماء في معية الله تعالى.

أما من حيث هم مكلَّفون فقد تنوعت وظائفهم التكليفية:

- فمنهم الذين يتوسطون بين الله وبين الناس، وهؤلاء هم رسله الذين يحملون وحيه للمصطفين الأخيار من رسله، وقد اشتهر منهم[٨٢]: بهمن، واردبيهشت، واسفندارمز، وخرداد،ومرداد، وشهربور، وجميعهم رآهم زرادشت وعنهم تلقى وحي الله وعلوم الدين.
- ومنهم الكتبة الحافظون لأعمال العباد، ومهمتهم تنحصر في تسجيل الأعمال الحسنة كالصلاة وتقدمات الأتقياء (الزكاة والصدقات) والأعمال السيئة كالسرقة والزنا وغيرها.
- ومنهم من يتولى المؤمن بالمراقبة فإذا رأوه مقبلاً على الطاعة زادوه رغبة فيها ومحبة لها، وحذروه من الوقوع في المعصية، وإذا رأوه معرضاً عن أوامر الله، مرتكباً لنواهيه، لاموه على فعله وحثوه على العودة إلى طاعة الله تعالى.
- ومنهم من أوكل الله إليهم حفظ وحراسة ورعاية مخلوقاته غير المكلفة كالحيوانات والنباتات والجمادات والمياه والمعادن والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب وغيرها[٨٣].
- ومنهم الملائكة (المحبون للإنسان)[٨٤]، وهؤلاء تقتصر وظيفتهم على الاستغفار للعاصين من المؤمنين، وطلب العفو لهم من الله.
- ومنهم الذين يرعون المؤمنين المترددين على أماكن العبادة، ومن هؤلاء من يشاركهم في الصلاة وفي الذكر والدعاء، كما يشاركونهم أيضاً في مناسبات الأعياد، وفي حالات تقديم الزكاة والصدقات.

وليس للملائكة عدد معروف فهم كثر يعدون بالمئات والألوف[٨٥]، أما الذين

تكرر ذكرهم في الابتساق وخصوا بمهام جليلة لم يكلِّف الله بها سوادهم فعددهم ستة هم: فاهومانو، إستاوهستيا (إسفاهيشتا)، هوخشترا (كشترانايريا)، سبيتا أوهيتي (آرمايتي)، هورتان (أهوراناتات)، أميرتات (أميرتيات).

وفي مراحل تدهور الدين واختلاطه بالوثنيات والمجوسية القديمة عدت وظائف الملائكة والتي بينا جانباً منها قبل قليل مظاهر ومميزات متعددة لله تعالى. يظهر بواسطتها للناس ليعرفوه بها، ولأنها مستقلة عنه في الوجود فقد أعطيت لها أسماء الذوات المنفردة بالفعل والحركة، ولكنها في كل الأحوال ليست شخصيات حقيقية تشارك الله في الخلق والتأثير، ومن ثم فهي لا تظهر في الوجود إلا بمقتضياتها تماماً مثل الصفات الإلهية.

وعلى هذا فالحق عز وجل يظهر ذاته العلية في ست صفات إلهية علوية أسماؤها ومقتضياتها وردت في التصور المنحرف للملائكة على النحو التالي:

* فاهومانو: تظهر فيه ألوهية الله بكاملها، كما يظهر فيه أهورامزدا الإله بذاته، ولذلك فهو يمثل ذات الله خير تمثيل، فهو الفكر الطيب والطهارة في القول والفعل.

* إستاوهستيا: تظهر فيه الألوهية معطية للناس الشرائع (خير الحقائق) والتي في معرفتها الحكمة والصدق والاستقامة والصلاح والسلامة والتقوى.

* هوخشترا: يظهر فيه ملك الله وتسلطه وعزه، وقهره وجبروته واقتداره وغناه عن الكل.

* سبيتا أرميني: يظهر فيه المحبة والطاعة والخضوع لله والتواضع والعبادة.

* هورتات: يظهر فيه الكمال الإلهي الذي لا يتغير ولا يتحول، كما يظهر فيه أيضاً الكمال في حركة ونظام الكون والمخلوقات.

* أميرتات: يظهر فيه الخلود الإلهي، أو هو يمثل أزلية الله وأبديته[٨٦].

وفي واقع الأمر فإن ذلك الخلط الشنيع بين مقتضيات الصفات الإلهية، وبين وظائف الملائكة تدحضه وتكذبه نصوص الابتساق نفسها، والتي نصت على الملائكة بالاسم والصفة، بل ميزت في تخصيصها لهم بين صنفين منهم:

- صنف هم الملائكة المقربون من الله فوصفتهم بمساعديه السماويين، والمقدسين الخالدين، والقوى الخالدة، وهؤلاء أطلقت عليه اسم (امش سبند)[٨٧] بمعنى الملائكة الرئيسيين، أي المقربين.
- والصنف الآخر هم ما دونهم في المرتبة وفي الوظيفة التكليفية فسموا بـ (Yazata)[٨٨]، وسموا في المصادر الإسلامية بـ (يزتا)[٨٩]، أي الملائكة الذين خصهم الله بتكاليف غير تلك التي خص بها المقربين.

الحياة الثانية:

إن حركة الإنسان التعبدية في العقيدة الزرادشتية ليست مرادة لحياة فانية تزول بموت صاحبها، بل مرادة لحياة باقية يسعد فيها أو يشقى إلى ما لا نهاية، فورد في الابتساق ما حكاه زرادشت عن ربه مخاطباً الناس جميعاً:

«أيها الإنسان الفاني إن الله هو الذي خلق السعادة والشقاء فإذا أنت امتثلت لأوامره واجتنبت نواهيه، فحتماً ستفوز بالسعادة الأبدية، أما الشقاء والعذاب الطويل فمن نصيب الأشرار العصاة»[٩٠].

وفي نص آخر تعين مأوى السعداء والأشقياء، فقال زرادشت:

«إن الذين يسلكون السبل القويمة لمرضاة الله هم سائرون لا محالة إلى فردوس النعيم، حيث الخلود والصحة الكاملة، أما الضالون المكذبون الذين يتبعون الشيطان فإن مآلهم إلى جهنم، حيث العذاب والنكال»[٩١].

والحياة الثانية في الزرادشتية مكملة ومتمة للحياة الدنيا، ولا معنى للحياة الدنيا بدون الحياة الأخرى، والإنسان نفسه ما خلق وكلِّف في الدنيا إلا لنوال ثمرة لا ينالها إلا بالتكليف، وفي حياة أعدت خصيصي كغاية مبتغاة للخلق وللتكليف معاً، أما تفاصيل تلك الحياة في أخرويات الزرادشتية فلا تكاد تختلف في تفاصيلها العامة عن أخرويات الإسلام وعلى نحو ندر مثيله في الأديان الكتابية الأخرى.

تبدأ الحياة الثانية في الزرادشتية[٩٢] عقب خروج الروح مباشرة من البدن ولكن الرحلة نحو العالم الآخر لا تبدأ على الفور، لأن انفصال الروح ومغادرتها للبدن تعقبه سلسلة من الإجراءات بها تتحرر الروح نهائياً من عبودية الآثار المادية، ومن كل سلطان دنيوي، ويستغرق التحرر التام عن إسار البدن ثلاثة أيام بلياليها تبقى

الروح خلالها بجوار رأس الميت، أو بتحديد أدق في مكان رأسه قبل حمل الجثة للدفن، في أثناء ذلك يحوم حولها ماضي الميت وأعماله، وما صدر عنه في شريط طويل.

فإذا كان الميت باراً وتقياً، وقضى حياته كلها سالكاً طريق الإيمان والحق والخير والصلاح، فإن روحه تنعم طوال الأيام الثلاثة بما يهب عليها من روائح عطرة طيبة، تسعدها وتفرحها إلى درجة تجعلها تتشوق للحياة التي تنتظرها بعد انقضاء الفترة الموقوتة.

أما إذا كان الميت شريراً وعاصياً، وكانت صحيفة أعماله طافحة بقبائح الأعمال، فتهب على روحه روائح منتنة كريهة كأنها روائح جثة ميتة، وتظل روحه تدور حول موضع رأسه في حيرة وقلق وارتباك خوفاً من المصير المرعب الذي ينتظرها عقب انتهاء الأيام الثلاثة.

وفي اليوم الرابع تبدأ الرحلة الفعلية إلى العالم الآخر، وإلى الحياة الثانية، فالروح الخيرة تمضي في صعودها الظافر نحو السماء وسط عبير روائح لم يسبق لها أن استنشقت مثلها في الأرض، وعلى النقيض منها الروح الشريرة، ففكرة المصير المرعب الذي ينتظرها ترهقها، وماضيها يثقلها بالهموم، فمن الطبيعي أن تشق طريقها إلى السماء وسط كآبة وخوف ووحشة، وروائح كريهة لا تطاق ولم يسبق لها أن استنشقت مثلها في الأرض.

تواصل الأرواح الخيرة والشريرة رحلتها نحو السماء محاطة بالرياح الآنفة الذكر إلى أن تصل الحد الفاصل ما بين العالم الدنيوي والعالم الأخروي، حيث نصب الله تعالى جسر جنفات Chinvat[٩٣]، أي جسر الانفصال، عنده تقف الأرواح جميعاً في انتظار الإذن والسماح لها بالعبور فوق الجسر، إما لنعيم دائم أو عذاب دائم.

لا يستمر وقوف الأرواح طويلاً عند الجسر، فسرعان ما تستقبل كل روح على حدة صورة رمزية لأعمالها التي فعلتها في الدنيا[٩٤]، فالروح التقية الصالحة تقابلها فتاة غاية في الحسن، ساحرة المنظر، أجمل من كل جميلة في العالم، متشحة بثياب بيضاء نقية، معتدلة القوام تبدو عليها سمات النبل والجلال، فتنبهر الروح من حسنها وجمالها الذي لم تر له مثيلاً، تقترب الفتاة من الروح وتقدم لها جزيل الشكر على أن ثباتها في الدنيا على طاعة الإله هو الذي جعلها فاتنة ومحبوبة وبهية الطلعة، هنا تسألها الروح:

- من أنت؟

فتجيب الفتاة:

«أنا أعمالك الطيبة الصالحة المقبولة عند الإله كنت محبوبة فزدت الناس محبة فيّ، وكنت جميلة فزدتني جمالاً، ورفعت من شأني».

ثم تسرد عليها كل الأعمال الخيرة والصالحة التي أنجزتها الروح طوال الحياة الدنيوية في الأرض.

بعدها يسمح للروح الصالحة بالمرور فوق الجسر بمصاحبة الفتاة وإرشادها، ومن الخطوة الأولى على الجسر يتسع أمامها طريق المرور فتمضي الروح بسهولة ودون خوف أو قلق أو اضطراب إلى أن تصل إلى حيث النور اللانهائي في بيت الخلود (الجنة)، فتنعم هناك بإقامة دائمة تسبح وتحمد الله إلى يوم البعث والنشور.

أما الروح الشريرة فتستقبلها عجوز شمطاء بشعة المنظر، منفرة، منتنة الرائحة، لا يكاد يستر جسدها شيء، وضيعة الأصل، يبدو على محياها المجون والاستهتار، فتفزع الروح لقبحها ووضاعتها، أما العجوز فتحدق في الروح تحديقاً ملؤه الاحتقار والازدراء، والمقت والكراهية، وتبادر الروح بسؤالها قائلة:

- من أنت؟

فترد عليها العجوز بقرف ظاهر:

«أنا أعمالك الشريرة، وسلوكك المشين، كنت مكروهة بين الناس فزدت الناس كراهية فيّ، كنت قبيحة فزدتني قبحاً، وحططت من شأني حتى صرت بغيضة ومحتقرة».

ثم تأخذ العجوز في تعنيفها بحقد وقسوة، وتلومها على أن صيّرتها بخروجها عن طاعة الله على هذه الصورة التي لا تطاق، وأخيراً تسرد عليها كل ما فعلته في الأرض من شرور وآثام.

وعندما تجتاز الروح بمصاحبة العجوز جسر الانفصال يضيق ويدق أمامها تدريجياً في كل خطوة لها، حتى يصبح في النهاية أدق من الشعرة، فتصاب الروح بالفزع والاضطراب، وتتعثر خطاها وتتأرجح ذات اليمين وذات الشمال، ولكن لا موضع لها في الجانب الآخر من الجسر، فتسقط في أعماق هاوية يكاد ظلامها الدامس

يقبض عليه باليد لشدته وتكاثفه بعضه فوق بعض، وتظل الروح تنحدر متخبطة في ذلك القاع الذي لا نهاية له مكابدة آلام العذاب إلى يوم القيامة.

وفي واقع الأمر فلا الفتاة الحسناء ولا العجوز القبيحة شخصيات حقيقية وإنما هي عبارة عن صور رمزية للأعمال الدنيوية، أو بتعبير أدق تشخيص حسي لأعمال الإنسان في الحياة الدنيا، وله في رمزيته تلك ما يقابله في أخرويات الإسلام، حيث روي[٩٥]:

«أن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله عمله في أحسن صورة وأطيب ريح، فيقول:

- هل تعرفني؟

فيقول:

- لا، إلا أن الله قد طيّب ريحك وحسن صورتك.

فيقول:

- كذا كنت في الدنيا، أنا عملك الصالح، وطالما ركبتك في الدنيا، فاركبني اليوم.

فذلك قوله: ﴿**يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً**﴾[٩٦] أي ركباناً.

وأن الكافر إذا خرج من قبره استقبله عمله في أقبح صورة وأنتن ريح، فيقول:

- هل تعرفني؟

- فيقول:

- لا، إلا أن الله قد قبّح صورتك ونتن ريحك.

- فيقول:

كذلك كنت في الدنيا، أنا عملك السيئ طالما ركبتني في الدنيا وأنا اليوم أركبك.

وذلك قوله: ﴿**وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم**﴾[٩٧].

وتبقى الأرواح التي تعادلت أعمالها الصالحة مع أعمالها الشريرة عند الجسر[٩٨] لا يسمح لها بالمرور، إذ لا محل لها في الجانب الآخر، فلا هي شريرة حتى يحكم عليها حكم الأشرار، ولا هي خيرة حتى يحكم لها بحكم الأخيار، وإنما في

منزلة وسطى بين المنزلتين، ولذلك تنقل إلى عالم وسط بين النعمة والعذاب، وهناك تنتظر موزعة بين الأمل في النجاة، والخوف من المصير إلى يوم ينفخ في الصور.

وموقف الأخرويات الزرادشتية فيمن تعادلت أعمالهم مطابق إلى حد كبير لموقف رجال الأعراف الذين قال فيهم الحق عز وجل **﴿وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون﴾**[٩٩] وقال فيهم أيضاً: **«ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون»**[١٠٠].

وقال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم «توضع الموازين يوم القيامة، فتوزن السيئات والحسنات، فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال صوابة دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال صوابة دخل النار، قيل يا رسول الله، فمن استوت حسناته، وسيئاته، قال أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون»[١٠١].

ورجال الأعراف – كما هو معروف – هم «قوم تجاوزت بهم حسناتهم عن النار، وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة»[١٠٢] فيقفون في مرتفع على الصراط، منه يشرفون على الجنة والنار، فلا هم من أهل الجنة ولا هم من أهل النار، إلى أن يقضي الله فيهم.

القيامة والبعث والحساب:

تحدث سفر اليسنا[١٠٣] في عبارات واضحة عن زمان آت تنتهي عنده مهمة الإنسان على الأرض، فتتوقف حركة الحياة لارتباطها الوثيق بالإنسان المكلَّف من جهة، ولبلوغها حد الكمال المقدر لها من جهة أخرى، حينها تقوم الساعة، فتميد الأرض بالبقية الباقية من بني آدم، وتتناثر الجبال، وتخرج المعادن من باطن الأرض، وتنتشر النيران في كل مكان فتقضي على كافة الأحياء.

وما رمى إليه سفر اليسنا قريب مما تقرر في الأخرويات الإسلامية حيث إن بلوغ النوع الإنساني الأجل المضروب لهم لأداء مهمتهم في الأرض مقترن بنهاية الدنيا وطي الأرض، فيبعثون جميعاً للحساب.

وفي يوم البعث كما تقول مصادر العقيدة الزرادشتية، ترد إلى كل إنسان روحه

ومعها «كتاب الحياة»[١٠٤] الذي سجل فيه ملائكة الله كل ما قاله وما فعله من يوم بلوغه سن التكليف إلى يوم مماته، والكتاب مؤلف من شقين في الأول سجلت كل الأعمال الخيرة والصالحة، وفي الثاني سجلت كل الأعمال الشريرة والفاسدة، ويطوى الكتاب بعد عروج الروح في رحلتها الأولى للعالم الآخر، ويودع عند الملاك المختص بحفظ كتب الحياة إلى الوقت الذي تعرض فيه كل الأعمال المسجلة للحساب والوزن والميزان.

في هذا اليوم توزن أعمال العباد، فمن رجحت أعماله الصالحة (حسناته) على أعماله الشريرة (سيئاته)، فذلك من ثقلت موازينه، وهو من السعداء، ومن رجحت أعماله الشريرة على أعماله الصالحة، فذلك من خفت موازينه، وهو من الأشقياء، ومن تساوت أعماله الصالحة مع أعماله الشريرة، فذلك ينزل منزلة وسطى بين السعداء والأشقياء إلى أن يحكم فيه الحق عز وجل.

بعد ذلك يأمر الإله أهورامزدا الجميع بالمرور فوق الصراط (الجسر) الممدود فوق نار جهنم فيمر السعداء فوقه، فلا ينالهم من وهج جهنم شيء، ويتسع الصراط أمامهم كلما مشوا فيه، إلى أن يصلوا مأوى أهل السعادة، حيث الجنة فيسعدون فيها سعادة لا شقاء بعدها أبداً.

أما الأشقياء فيمرون فوق الصراط، وهم يرونه أمامهم في دقة الشعرة وحدة السيف، ولكنهم معذبون بالمشي عليه، ولذلك تزل أقدامهم فيهوون في نار جهنم إلى الأبد، أو بتعبير اليسنا لفترة طويلة[١٠٥].

الفصل الثالث
فروع الدين

إن حرية الإنسان في قبوله التكليف الإلهي مرهونة بما يضمن أداءه على الوجه الأكمل والمراد لله تعالى، ولذا يشترط على الإنسان المخاطب بالتكليف الإيمان أولاً بالإله، بصفة المكلِّف، أي الانتساب إليه بصفة أخص من صفة الخالق، فإذا آمن عد إيمانه هذا مناطاً للتكليف، والإيمان يشتمل على قواعد ثلاث، اعتقاد بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح، وكلها أعمال تعبدية عليها مدار التكليف.

ويطلق على الانتساب نفسه في مفهومه الإسلامي البسيط في الزرادشتية اسم «موارد التكليف»[١٠٦]. ويراد به معنى الإيمان، إذ بالإيمان يتحقق الانتساب للإله بالصفة التي تنهض على دعائمها العلاقة التكليفية، فلا عجب إن اشتمل على القواعد نفسها التي اشتمل عليها في الإسلام وهي:

هوماتا (هومت Humata) وهوخاتا (هوخت Hukhata) وهفارشتا (هورشت Hvarshta). وتعني على التوالي الاعتقاد والقول والعمل، وبها جميعاً يتم التكليف.

ونص الابتساق على أن ذلك المعنى وحده هو الذي يطهر الإنسان من نجاسة الكفر ورجاسة الشرك وسائر الاعتقادات الباطلة، فقال تعالى في خطاب لزرادشت:

«إن الطهارة هي أفضل شيء بعد الولادة، هي أعظم خير بعد الحياة، الطهارة يا زرادشت في ديانة الله أن يتطهر الإنسان باعتقاد صالح وقول صالح وعمل صالح»[١٠٧].

ولا سبيل لطهارة النفس وصلاحها إلا بالإيمان، فيقول تعالى مخاطباً الناس على لسان زرادشت:

«طهر نفسك أيها الإنسان من كل قاذورات النفس وأوساخها فإن كل إنسان حي في هذا العالم المادي بمقدوره تطهير نفسه باعتقاد حسن وقول حسن وعمل حسن»[١٠٨].

أما غير المنتسب إلى الله تعالى بالإيمان، ولا دين له ولا شريعة فهو الكافر، والكافر – كما يصفه الابتساق[١٠٩] – فاسد العقيدة خبيث الباطن، قذر النفس، وهو بقذارة حياته يلوث كل من حوله، يلوث عباد الله الأحياء ويمنعهم من التمتع بالأغذية والألبسة وسائر نعم الحياة، ويؤثر أيضاً بظلمه لنفسه على الماء فيفسده، وعلى الزراعة والماشية فيهلكها، ولا يرتاح منه الخلق، ولا يبطل فساده إلا بموته.

وفي هذا وذاك تتفق الزرادشتية مع الإسلام ليس فقط في اعتبار الإيمان أساس الانتساب لله تعالى، وإنما أيضاً في أن خلافة الإنسان ونيابته عن الله في الأرض لا يصلح لهما إلا الطاهر النفس من كل أرجاس الشرك وأدناس الوثنية، ولا تتحقق الطهارة للنفس إلا بالإيمان، فإذا كان التكليف هو الاستقامة على مراد الله في الحياة، فإن النيابة والخلافة ما هما إلا الإقامة مقامه تعالى في الأرض، ليفعل المكلَّف مثل فعله تعالى، ومن لم يكن طاهراً نقياً يستحيل عليه القيام بالمهتمين معاً.

وفي الزرادشتية لا يتم التصريح أو الجهر بالإيمان بالله تعالى والانتساب إليه بصفة المكلِّف إلا في الوقت الذي يبلغ الزرادشتي الحلم، ويقلد الحزام المقدس، عندها يطلب منه التلفظ بشهادة الدين[١١٠]. ونصها كما يلي:

«أشهد بأني مؤمن بالله الخير الغني، وعابد له، وأتبع زرادشت رسوله الكريم، ومعاد للشيطان وأعوانه، كما أقر بأني مسلم مصدق بالعقيدة الزرادشتية وأثني على ملائكة الله، وأنسب كل خير وكل شيء في الوجود لله تعالى[١١١].

وعلى كل مؤمن ترديد شهادة الدين طوال حياته حتى يعرف الناس بنسبته وانتسابه لله تعالى، وبإقراره واعترافه وطاعته لما جاء به رسول الله إليه، فالشهادة في الزرادشتية إذن هي إظهار لقواعد الإيمان الثلاث اعتقاداً وقولاً وعملاً، وذلك تمام معنى التوحيد.

وبالشهادة لله تعالى رباً ومكلِّفاً، والاعتراف بزرادشت رسولاً ونبياً يتطهر الإنسان وتنقطع صلته بماضيه وجاهليته أياً كانت، يقول الله تعالى لزرادشت:

«إن دين الله يا زرادشت يطهر الإنسان المعترف به من كل فكر سيئ وقول سيئ وعمل سيئ، كما تطهر الريح الشديدة السماء من السحب والغيوم، وإذا لم يقم المؤمن من لحظة إيمانه فصاعداً إلا بالأعمال الصالحة، فإن الله يكفر جميع خطاياه، ويمحو جميع ذنوبه[١١٢].

وعقب النطق بالشهادة يحرم على المؤمن تحريماً قاطعاً الارتداد عن الدين، ويعد الارتداد أو الخروج عن الدين كفراً صريحاً وجريمة كبرى ورأس الخطايا[١١٣]، وكل مرتد ومارق يعاقب بالإعدام من غير توان[١١٤]، وبسرعة شديدة منعاً لأي تلاعب في دين الله، وحفاظاً على قدسية الشهادة واحترامها.

وفي العصر الساساني تسامحت نصوص الابتساق بعد إعادة جمعها وترتيبها مع المرتد، والخارج عن الدين، فنصت على حبسه أولاً، وأن يداوم رجال الدين على تلاوة أحكام الشريعة عليه مدة عام، ينصحونه خلالها ويبينون له بالبراهين المفحمة صدق الوحي المنزل على زرادشت، ويزيلون عنه الشبهات التي أبعدته عن الحق، فإذا تاب وأناب واستغفر أطلقوه من حبسه، وإذا حمله الإصرار والاستكبار على الردة أمروا بقتله فوراً[١١٥].

وكل من يدعو إلى دين آخر غير دين زرادشت، أو شريعة أخرى غير شريعته، أو يعلم الناس عقيدة باطلة، قاصداً بدعوته وتعليمه إخراج المؤمنين من دين الله، أعظم الأديان، وأجمل العقائد، وأجود المذاهب[١١٦]، فهو في نظر الشريعة جالب الخراب غير المرئي للدين، وجالب الهلاك الظاهر للناس، وكل من يفعل ذلك يعاقب من جراء إفساده وخطيئته في حق الله وحق المؤمنين بالجلد مائتي جلدة[١١٧].

فهم كثير من الباحثين موارد التكليف الزرادشتية فهماً مغايراً لطبيعتها، ومنه خلصوا إلى أنها تعاليم زرادشت الأخلاقية، أو بتعبير آخر هي خلاصة الحياة الأخلاقية التي تضمنت كما يرون مع إيجازها الشديد الكثير من الفضائل[١١٨]، متابعين في ذلك ما استقرت عليه نصوص الابتساق المحرفة أيام الساسانيين[١١٩].

ففي العصر الساساني اعتبرت تلك الموارد تكاليف حاثّة على صدق النية وصدق القول وصدق العمل، وذلك حتى تتجه حركة الإنسان في الحياة إلى الأفكار الصالحة والأقوال الصالحة والأفعال الصالحة، وعلى المرء في مقابلها الابتعاد عن ثلاثة أمور، الأفكار السيئة والأقوال السيئة والأفعال السيئة، ومن ثم عدت في نظر المشرع الساساني بمنزلة القانون الذي ينظم الحياة الدنيوية للمؤمنين.

لم يدرك هؤلاء جميعاً من مفهوم الإيمان إلا جانبه الحركي الذي يكسب الإنسان الطهر والنقاء وذلك بالتفكير الخير والقول الخير والعمل الخير. وموارد

التكليف – كما قلنا – هي قواعد الإيمان في ترتيبها الطبيعي، فهي تشتمل على معان قلبية لها في الوجود مظهران، علم وعمل، تصاغ معاً في شهادة لفظية تتضمن الاعتراف والانقياد والقبول والإذعان، بها ينتسب الإنسان إلى الله فيسميه مؤمناً ومكلَّفاً ومسلماً، وفي ضوئها يتعامل مع محيطه الخارجي.

وعمليات الدين الزرادشتي أو فروعه ترتكز كما هو الحال في الإسلام على الاعتقاد القلبي الركن الأعظم من الإيمان، ومنتهى التسليم الذي يتبعه الانقياد لله تعالى في جميع ما كلَّف به، فإذا أقبل المكلَّف على تكاليف الله وأجرى حركاته كلها على مقتضى أوامره تعالى ونواهيه، حكم عليه بالطاعة، وإذا قصر في أوامر الله وخالف نواهيه خرج عن حد الطاعة لا عن حد الاعتقاد فيحكم عليه بالمعصية والعصيان.

وفي حديثنا التالي سنعرض لجوانب متعددة من فروع الدين وعملياته وسائر شعائره، وسيتبين منها لنا مفهوم العبادة والتعبد جلياً كمظهر خارجي للاعتقاد، وعلى نحو لا يكاد يختلف كثيراً عن معناها في الإسلام.

أولاً – الطهارة:

تنحصر الطهارة التي يكتسبها الإنسان بالإيمان في تنقية النفس من أدران الكفر والوثنية والشرك، ثم تتلوها في المنزلة طهارة أخرى للنفس والبدن معاً وعلى مستوى التكليف حفاظاً على طهارة النفس مما يكدر صفاءها ويلوثها، وترد هذه الطهارة ضمن التكاليف العادية ليمارسها المؤمن كعبادة خالصة لتبقى النفس دوما على طهارتها الأولى، ولتحظى بالطهارة التعبدية على حياة نقية خالصة من شوائب المادة وآثارها الضارة. والطهارة المفروضة تكليفياً على نوعين: طهارة للبدن، وطهارة للنفس:

أ – طهارة البدن:

يجب على كل مؤمن زرادشتي تنظيف بدنه مرة واحدة في اليوم على الأقل، وذلك بغسل وجهه ويديه[١٢٠]، وغسل الوجه واليدين بمنزلة تطهير شامل للبدن كله، وليس مرهوناً بجنابة أو دنس يلحق بالبدن، لأن المشرع ينظر إليه هنا بوصفه شعيرة تعبدية بقصد نظافة أكثر أعضاء البدن تعاملاً مع حركة الحياة، ويستخدم فيها الماء الطاهر بالقدر الذي يطمئن إليه المتطهر في أداء الغسل الواجب عليه.

ومما يجب غسله ونظافته وتطهيره بجانب البدن ما له علاقة مباشرة به، كالملابس، التي يجب غسلها جيداً من الدرن والأوساخ، ويعد ارتداء الملابس القذرة وعدم الاكتراث بنظافتها، أو ارتداء ملابس رثة أو ممزقة من الأمور المكروهة في الدين، والمفروض على المؤمن تجنبها ما وسعته قدرته[١٢١].

إن استخدام المياه في سائر ما يتطهر به من نجاسات البدن وما يتعلق به، ودخولها بشكل مباشر كعنصر رئيسي في العبادة والشعائر الدينية أدى بزرادشت إلى توصية أتباعه باحترامها وتقديرها وفرض عليهم تنزيهها والمحافظة عليها نقية صافية، فلا يلقى فيها ما يفقدها قدرتها على التطهير.

ومن بعد زرادشت ظل تعظيم الماء يتعاظم عند الفرس مع الزمن، ونظرة التقدير إليه تتضخم حتى وصل بهم الأمر إلى حد التقديس وترك استعماله في إزالة النجاسات وإماطة القاذورات إلا بواسطة ما يستخرج من الأشجار أو من البقر، أما في الاستخدام اليومي فلا يستعمل في غسل الأيدي بعد الأكل، ولا في المضمضة لاعتقادهم أن فيها استخفافاً بالماء، ويكتفون فقط بمسح الشفاه[١٢٢].

وفيما عدا غسل البدن فلم يفرض فيما وصل إليه علمنا الغسل في الجنابات مثل البول والاحتلام وغيرها، وإنما على الزرادشتي في حالة ترك بوله يسيل على فخذيه حتى يصل مفصل قدميه الابتعاد قليلاً عن موقع بوله، ثم يشرع في تلاوة أدعية تطهره من جنابته، ويفعل الشيء نفسه كل من يلقي نطفته في النوم، فعليه بمجرد استيقاظه ترتيل أدعية التطهر الخاصة بجنابة الاحتلام ولا يجب عليه في كل الأحوال استخدام الماء الطاهر[١٢٣].

وكما أوجبت الشريعة تطهير البدن، أوجبت أيضاً قص شعر الرأس واللحية وتقليم الأظافر من قبيل النظافة والتهذيب، وفرضت على كل مؤمن جمع قصاصات الشعر وقلامات الأظافر والذهاب بها بعيداً عن مسكنه وعن الأشياء التي يتعامل معها في حياته اليومية، ثم يحفر لها ثقباً في الأرض يضعها فيه تالياً جهراً آيات تتضمن حمد الله تعالى وشكره لخلقه النباتات شعر الأرض، ثم عقب ذلك يدعو بدعاء طويل يسأل فيه ربه أن يطهره من كل دنس، ويمنحه الصحة وطول العمر وأن تتحول قصاصات الشعر وقلامات الأظافر إلى أقواس وسهام ذات أجنحة ضد الشياطين أعداء الله وأعداء المؤمنين[١٢٤].

وكل من يترك شعر رأسه ولحيته أو قلامات أظافره تتساقط على الأرض، ولم يقم نحوها بما يأمره به الدين، فهو بلا جدال ممن لا يراعي حرمة بدن المؤمن حياً، ويعد من المحتقرين للشريعة، وما يصدر عنه ذلة تتجسد فيها أعمال الشيطان، ولا يجرؤ عليها إلا من لا دين له ولا شريعة(١٢٥).

اتبع الزرادشتيون سنة نبيهم في قصهم لشعر الرأس وحف اللحية وعف الشارب حتى ظهور الإسلام، وكانوا يرون في تخفيف اللحية وإطالة الشارب سمة من سمات الرجولة الدالة على الصبر والصلابة عند الشدائد، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بمخالفتهم حيث قال: «إن آل كسرى يحفون لحاهم، ويعفون شواربهم، وإنا آل محمد نقص شواربنا ونعفي لحانا»(١٢٦).

ومقصود الرسول صلى الله عليه وسلم أن المجوس كانوا يحفون لحاهم ويعفون شواربهم لا من قبيل العبادة، وإنما يفعلون ذلك تجلداً وتجبراً وتكبراً وعتواً، فأمر أتباعه بمخالفتهم مخالفة تتجلى فيها مظاهر التواضع والعبودية لله تعالى.

٢ - طهارة النفس:

نهت الشريعة الزرادشتية عن الإتيان بأفعال بعينها وصفتها بالقبح، وحكمت عليها بأنها مما يلوث صفاء النفس ويفسدها ويعطلها عن مهمتها في الحياة، ويرد النهي والتحذير من ارتكابها صريحاً في الابتساق نذكر منها: شرب الخمر، وأكل الميتة، وأكل كل ما يخرج من باطن الإنسان من أي منفذ كان، والربا والزنا والسرقة واللواط والكذب والانتحار، وغيرها، وفيما يلي عرض مبسط لبعض منها:

أ - الزنا:

يعرف الزنا في الشريعة الزرادشتية نفس تعريف الشريعة الإسلامية له، وهو أنه وطء المرأة من غير عقد شرعي، والعبارة التي يفهم منها ذلك التحديد والتعريف وردت في سياق العقوبة التي توقع على الزاني، فجاء فيها:

«..إذا زنى رجل ما بفتاة عند والديها أو لم تكن (عذراء)، وإذا كانت حبلى أم لم تكن، وإذا كانت قد سلمت إلى زوج أو لم تسلم...»(١٢٧).

فعين الوطء المحرم شرعاً بأنه ما يقع في هذه الدائرة، وما عداه فهو محلل شرعاً والمضبوط بقواعد الشريعة.

والعقوبة الحدية التي تطهر الزاني والزانية من دنس ما اقترفا هي التمثيل[١٢٨] بالمحصن والمحصنة تمثيلاً يجعلهما عظة وعبرة للغير، أما ما عداهما فيجلد الواحد منهما ثلاثمائة خشبة، والغرامة ثلاثمائة إستار[١٢٩] من الفضة[١٣٠].

وفي العصر الساساني أبطل الحد الشرعي الذي كان مطبقاً في الماضي[١٣١]، واستبدل بعقوبتي التمثيل والجلد قطع أنف الزاني والزانية، وألا يقطع منهما عضو ينقص من قوتهما، وهكذا - كما يقول تنسر - يلحقهما العار، ولكنهما يعملان فلا تنقص القوة العاملة في المجتمع[١٣٢].

ب - السرقة:

يعد سارقاً كل من أخذ ما ليس له، أو ما للغير واستولى عليه خفية أو علانية، كقطع الطريق على الناس والاستيلاء على ممتلكاتهم بالقوة، بل يعد سارقاً وسالباً من «لا يؤدي المال الذي كان قد استدانه إلى الدائن عند طلبه ماله»[١٣٣].

والعقوبة المطهرة لجرم السرقة إما التمثيل بالسارق أو قطع يده[١٣٤]، حسب نوع السرقة ومقدار المسروق، ثم استبدل بالحد الشرعي الجراحة والغرامة حين أعيد تطبيق الشريعة أيام أردشير، وقد علل المشرع تغيير الحكم الإلهي بقوله:

«...حين نقطع يد السارق لن يفيد ذلك أحداً، بل سيقع بين الناس نقصان فاحش، ولذلك يحكم على كل من سرق وشهد عليه ثلاثة من العدول أو أقر هو على نفسه بقطع أنفه، أو يخرم أنفه، ويغرم قيمة ما سرق، ولا يقطع أي عضو ينقص من قوته وهكذا يلحقه العار ولكنه يعمل فلا تنقص القوة العاملة»[١٣٥].

فإذا عاد السارق وسرق ثانياً اكتفي عليه بشاهدين عدلين، وقامت العلامة الأولى مقام شاهد، فيخرم أنفه وأذنه في موضع آخر، ويغرم مثل قيمة ما سرق، فإذا عاد وسرق ثالثاً اكتفى بشاهد واحد ويخرم أنفه وأذنه في موضع ثالث، ويغرم قيمة ما سرق، فإن عاد وسرق رابعاً لم يستشهد عليه بعد ذلك ويغرم كل ما ادعى عليه خصمه[١٣٦].

أما قاطع الطريق ومروع الآمنين في الأسفار، والمغتصب حق الغير بقوة السلاح فهو المفسد في الأرض، وقد بقيت عقوبته كما كانت في شريعة زرادشت

الأولى، وهي قتله بلا رحمة، ثم أضيف إلى القتل فيما بعد غرامة أربعة أمثال ما نهب وسلب[١٣٧].

ويفسر تنسر فقيه الشريعة الزرادشتية أيام أردشير، وأحد العلماء الذين أوكل إليهم أمر تنظيمها وشرحها والتعديل فيها لتلائم مقتضيات الزمان سبب ذلك التغيير والتحريف في الحدود الشرعية فيقول:

«وقد يلزم العقاب بالإعدام في جريمة العفو فيها أليق، كما قد يلزم العفو في جريمة الإعدام فيها أبين، وحين رأينا أنه لا فائدة للمظلوم في أحكام وسنن الأولين، وأن العامة يلحقهم النقصان في العدد والقوة وضعنا هذه الأحكام والسنن حتى يعمل بها في عهدنا ومن بعدنا، وقد أمرنا القضاة بأنه إذا عاد المجرمون الذين عينت غراماتهم بعد تعزيرهم إلى الإجرام فعليهم أن يقطعوا الأذن والأنف وألا يتعرضوا لعضو آخر»[١٣٨].

ج – اللواط:

وصف اللواط في الابتساق بـ «الفعل المتعذر التكفير عنه»[١٣٩] وفي الشريعة يندرج اللواط تحت الأفعال الشاذة والمخالفة للطبيعة، وأطلق على كل من يطأ ذكراً أو يطؤه ذكر اسم «الشيطان الرجيم» فقال عنهما الإله لزرادشت:

«يا زرادشت هذا هو الرجل الذي هو شيطان، هذا هو الرجل الذي يقرب قرابين للشيطان، هذا هو الرجل الذي هو شيطانة، أنثى للشيطان، والذي هو شيطان ذكر للشيطان، هذا هو الرجل الذي هو امرأة للشيطان، هذا هو الرجل الذي يساوي شيطاناً، الذي هو شيطان بعينه، هذا هو الرجل الذي هو شيطان قبل أن يموت ويصير بعد الموت شيطاناً غير مرئي، سواء كان ذلك الرجل يطأ رجلاً أو يطؤه رجل»[١٤٠].

وليس على مرتكب اللواط فاعلاً أو مفعولاً عقوبة محددة في الشريعة، إذ يعتبر في الدين الجرم الذي لا يغفر أبداً، وقد ساوى الله تعالى لفداحته وشناعته ما بين فاعله وبين الشيطان في الحياة وبعد الممات، أي أن فاعله ملعون ومطرود من رحمة الله، ومن ثم «فلا غرامة عليه ولا كفارة ولا تطهير»[١٤١].

وإضافة إلى ما سبق فقد نهت الشريعة أيضاً عن كثير مما يعتبر من آفات

النفس التي يجب الإقلاع عنها كالحب الشديد للملذات والغرور الزائد عن الحد، ويجب على المؤمن كذلك تجنب المرور على الأسواق ما استطاع، بل عليه النظر إلى السوق وما يجري فيه كشيء حقير وخسيس مفسد لصفاء النفس ومعكر لنقاء الروح، وذلك لما فيه من الصخب والخيانة والغش والخداع، وكان الفرس قبل ظهور الإسلام يمنعون من بناء المدارس بالقرب من السوق حتى لا يكون ما يسود فيه من كذب وغش سبباً في إفساد طلاب العلم(١٤٢).

نظر الإسلام ونبي الإسلام للسوق وما يجري فيه نفس نظرة الزرادشتية، وذلك لأن الشيطان كما يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم يركز رايته في السوق(١٤٣)، فيسعى للإفساد بين الناس في بيعهم وشرائهم وفي معاشهم.

ثانياً – العبادة:

أ – الصلاة:

الصلاة في الزرادشتية كما في سائر الرسالات السماوية هي دعاء وتسبيح واستغفار وثناء على الله وتمجيد له، وهي في الزرادشتية وبهذا المفهوم تشكل جزءاً من عبادة المؤمن، وتأتي في العادة على رأس العبادات، ولذلك أوجبتها وجوباً فرضياً، بحيث أن من يتهاون في أمرها، أو يتكاسل في القيام بها، أو يتركها عامداً متعمداً يخرج من دائرة الإيمان إلى الكفر المحض.

والصلاة المأمور بها شرعاً في الدين الزرادشتي تقام خمس مرات في اليوم والليلة، ويؤقت أداؤها جميعاً بحركة الشمس في مدارها اليومي، الأولى قبل الفجر بقليل، والثانية في الظهر (انتصاف النهار)، والثالثة قبل غروب الشمس، والرابعة عند الغروب، والخامسة في الليل(١٤٤).

وتعرف الصلوات الخمس اليوم عند المجوس باسم Guhs، ولكنها تخفض إلى أربع صلوات في فصل الشتاء وتبقى كما هي في فصل الصيف، ولكل صلاة اسم خاص وتوقيت معين يضيق ويتسع حسب نوع الصلاة، وقد وردت في الابتساق(١٤٥) على النحو التالي:

* صلاة أوشاهينا Ushahina، من منتصف الليل حتى زوال النجوم في السماء.
* صلاة هافاني Havani، من شروق الشمس حتى الظهر.
* صلاة رابيثونيا Rapithwina، من الظهر حتى بداية حمرة الأفق عند غروب الشمس.
* صلاة يوزايرينا Uzererina من بداية حمرة الأفق عند الغروب حتى ظهور النجوم في السماء.
* صلاة إيوينسروثريما Aiwinsruthrema، من ظهور النجوم في السماء حتى منتصف الليل.

والصلاة التي تعد من أهم الصلوات وأميزها ولها من القداسة والاحترام ما ليس لغيرها هي صلاة الفجر، وهي التي يجب على كل مؤمن أن يبدأ بها يومه، فينهض من نومه عند أول صياح للديك، ذلك الطائر الذي يوقظه ملاك الله لتنبيه المؤمنين على ميعاد الصلاة، وصياحه كما جاء في الابتساق يقول للمؤمنين:

«قوموا ياناس، احمدوا الله والعنوا الشيطان، ها هو بوشيانسا Pushyansa (شيطان نوم الكسل) بأياديه الطويلة يسقط عليكم، يريد أن يعيدكم إلى النوم ويصرفكم عن الصلاة قائلاً: نم أيها الإنسان لم يحن وقت الصلاة بعد، فمن ينهض أولاً ضارباً عرض الحائط بقوله هو الفائز»[١٤٦].

وقبل الدخول في أي صلاة من الصلوات الخمس لا بد للزرادشتي من تهيئة نفسه والاستعداد لها. وذلك بغسل وجهه ويديه ورجليه مما علق بهم من الغبار مما يبطل الصلاة، ويفقد المصلي الطهارة التي تتطلبها الشعيرة، ثم عليه بعد ذلك التوجه نحو مشرق الشمس قبلة الدين[١٤٧]، واقفاً بين يدي ربه بكل خشوع وتعظيم مستغرقاً بكليته في تلاوة الآيات والأدعية.

وتتضمن كل صلاة أدعية مأثورة يتلوها المصلي الغالب عليها طابع التعبد لله تعالى، يظهر من خلالها معاني التذلل والخضوع لله تعالى، والتعظيم له، وتمجيده وحمده وشكره والثناء عليه بكل ما هو جميل وجليل، والاعتماد عليه، والتضرع إليه، وطلب مساعدته، وغيرها من المعاني التي استحق بها الإنسان اسم العبد.

وهناك أدعية خاصة يرتلها المؤمن في الصلاة وفي غير وقت الصلاة يسأل فيها ربه أن يطهر قلبه من الحقد والحسد والخبث والخوف. ويهلك الشياطين وأعداء الدين، وأن يبارك فيما رزقه إياه، ويحفظ له أسرته، وأن يقي بلاده شر الأعداء، ويعم بخيره كل بلاد المؤمنين، وغير ذلك كثير مما هو مبثوث في كثير من صفحات اليسنا واليشتا.

ولا يشترط في إقامة الصلاة وأدائها مكان بعينه، فيجوز للمؤمنين الصلاة في دور العبادة وفي منازلهم وفي سائر أماكن تجمعهم، والصلاة التي تقام في دور العبادة يرتدي لها الناس في الغالب الثياب البيضاء النظيفة، ويعقبها في أغلب الأحيان عظات وخطب يلقيها رجال الدين والمتعلمون من أبناء الملة يدور معظمها حول معالم الدين، والتذكير بالآخرة، ومعالجة مشكلات الحياة اليومية(١٤٨).

ومع الصلوات الخمس الموقوتة في اليوم والليلة هناك صلوات أخرى تأخذ شكلاً جماعياً وعلنياً هي الصلوات الخاصة بالأعياد الدينية المسايرة لفصول السنة مثل عيد النيروز، وهناك صلوات أخرى مثل صلاة الحاجة وصلاة الاستغاثة لا ترتبط بمناسبة معينة، فيها يتفرغ الناس جميعاً إلى الله ليكشف عنهم ما حل بهم من ضيق، وليرفع ما نزل بهم من مصائب، وتلك الصلوات لا تختلف عن الصلاة العادية، إلا في ارتباطها بالظروف التي أقيمت فيها، وترتل فيها أدعية خاصة بخصوصية الصلاة.

وفي غير أوقات الصلاة العادية شرع للزرادشتيين أدعية كثيرة لا حصر لها وذات صيغ متنوعة يتلوها الواحد في كل مناسبة من مناسبات حياته اليومية، فيمكنه دعاء ربه حين يشرع في الخروج من منزله للعمل صباح كل يوم جديد، وحين يذهب إلى قضاء الحاجة، وعقب تقليم أظافره وقص شعره وقبل الأكل وبعده، وقبل ذهابه إلى النوم في نهاية يومه.

وبالإضافة إلى تلك فقد حددت أدعية للعصاة، وكل من تنكب طريق الحق، وضل سواء السبيل، يجوز لها ترتيلها عقب الصلاة أو في الصلاة نفسها، والدعاء التالي واحد من أدعية كثيرة في اليسنا خاص بالمذنبين.



أرجو منك أيها الرب الخالق الرحيم الغفار أن تغفر لي ما ارتكبت من سيئات وما دار بخلدي من تفكير سيئ وما صدر عني من قول قبيح أو عمل غير صالح، إلهي إني أتوسل إليك أن تباعد بيني وبين الذنوب حتى أحشر يوم القيامة مع الأخيار والأبرار»[١٤٩].

ومن أدعية الزرادشتيين التي اشتهرت عند العرب قبل ظهور الإسلام دعاء الطعام، وهو تلاوة آيات من الابتساق عند ابتداء الأكل تلاوة خافتة بصوت لا يكاد يفهم، فيها تقديس للطعام وشكر لله تعالى على ما أنعم عليهم به، وفي أثناء تناول الطعام لا يمكنهم الكلام فيهمهمون ويشيرون ولا يتكلمون أبداً فسماه العرب (بالزمزمة)[١٥٠].

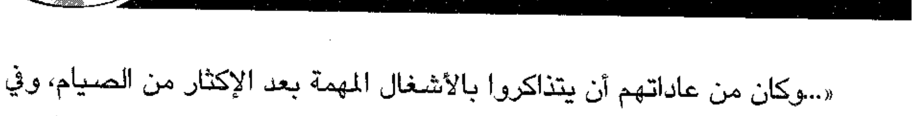
وقد نهى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه عن الهمهمة والإيماء بالغنة، لا بكلام مفهوم في أثناء الأكل ولا قبله، وكل ما يدل على الزمزمة أو يشير إليها من قريب أو بعيد، لأن الزمزمة ارتبطت في الأذهان بالمجوس وصارت عبادة خاصة بهم، ومن علائمهم المميزة، فأراد الخليفة للمسلمين مخالفتهم وعدم التشبه بهم فيما اشتهروا به[١٥١].

وبمضي الزمن امتدت تلاوة الدعاء بصوت خافت وخفي لا يكاد يفهم ليشمل تقريباً كل عبادة للمجوس، ومجوس الهند في زماننا هذا يتلون حتى صلواتهم اليومية – كما يصفهم المقربون إليهم – بشفاه مطبقة، وتصدر عن الواحد منهم أصوات ليست ملفوظة بوضوح، ومن ثم ليست مفهومة، ويزعمون أنها شرعت لهم من الله بواسطة مراكه سروش Srosh[١٥٢].

ب – الصيام:

الصوم مثل الصلاة من العبادات التي فرضها الله تعالى على عباده، وجعله ركناً لا يستقيم بدونه دين، ولا تخلو منه شريعة، لما يحققه للمؤمن من فوائد روحية ونفسية، ولما فيه من لذة وسعادة لا يستشعرها إلا المؤمنون، قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾**[١٥٣].

وقد ثبتت ممارسة الصوم كعبادة واجبة عند الزرادشتيين، وذلك من خلال ما رواه المؤرخون عنهم، فيحكي هيرودوتس عن الفرس في أيامه قائلاً:



«...وكان من عاداتهم أن يتذاكروا بالأشغال المهمة بعد الإكثار من الصيام، وفي الغد يأتي صاحب البيت الذي جرت فيه المذاكرة وبيده القرار فيراجعونه صائمين فإن أقروه يجرى بموجبه وإلا فيلقى»(١٥٤).

ولم تكن المجوسية القديمة تخلو – كما تروي دائرة المعارف البريطانية – من الأمر بالصوم والحث عليه ولو لطبقة واحدة من طبقات المجتمع، وأكدت ذلك بأن صوم خمسة أعوام من العمر كان فريضة مألوفة على الرؤساء الدينيين(١٥٥).

والصوم في النسخة المتداولة اليوم بين أيدي المجوس من الابتساق محرم تحريماً قاطعاً، ومن صام يعد مخالفاً للأمر الإلهي فيقع تحت طائلة الإثم، ومن أثم وجبت عليه الكفارة بإطعام جماعة من المساكين(١٥٦)، وإذا أصر على الصوم فيعاقب في الآخرة بأقسى أنواع العذاب المعروف في الدنيا والمعمول به في مجال العقوبات الشرعية، جاء في الفنديداد:

«...الرجل الذي يشبع نفسه بالأكل يكون فاهومانو (جبريل) أقرب إليه من الجائع، لأن ذلك يقاتل بشدة أستافيخوتس Astavidhotus – شيطان الموت النجس – الذي لا يأكل شيئاً، ويقاوم الشتاء القارص مرتدياً أرق الملابس، إنه يقاتل ويقاوم أشيمواقو Ashemaogho الكافر الآمر بالصوم.

إن من يرتكب هذا الذنب للمرة الأولى فعليه الكفارة، وفي المرة الثانية يجازى على ذنبه بأشد عذاب معروف في الدنيا كأن تقطع أعضاء جسمه عضواً عضواً، أو تقيد أعضاؤه بسلاسل من نحاس أصفر، أو يجبر على إلقاء نفسه من ارتفاع شاهق، أو يجلد حتى يعجز عن الوقوف»(١٥٧).

والمحرم في الدين الزرادشتي كما يلوح لنا ليس الصيام وإنما هو الزهد المبالغ فيه والتقشف الزائد عن الحد، والامتناع عن أبسط ضروريات الحياة، مما يترتب عليه ضعف البدن، وفتور الهمة، وضنى النفس والبدن بعذاب لا معنى له، ولا فائدة منه، فتتعطل قوة المؤمن على العمل والعبادة وهما غاية حياة الإنسان في الأرض.

وعندما أراد المجوس إحياء الدين في العصر الساساني التبست عليهم هذه المعاني بفرضية الصوم، فحرموه وحرموا كل ما هو وثيق الصلة بها، ثم نظروا في البقية الباقية من وحي الله في حياتهم فوجدوا الصوم يقف مع الصلاة على رأس

العبادات فجردوه مما هو محرم أصلاً من مظاهره كالجوع الشديد والتقشف الزائد عن الحد. والزهد في متاع الدنيا، وأبقوا على مضمونه كامتناع وإمساك عن مطلق فعل فقالوا: «إن الصوم الذي يحض عليه الإيمان هو الصوم عن الذنب»[١٥٨] أي الامتناع عن الخطأ بالعين واللسان وباليد وبالرجل.

ج - الزكاة:

تؤخذ الزكاة والصدقات من المقتدرين بنسبة الثلث من الأموال والحيوانات والنباتات وغيرها مما أنعم الله تعالى به على عباده، ثم توزع على الفقراء والمحتاجين من أبناء الملة، وما يفيض منها يصرف في عمارة الأرض، وإصلاح القناطر، وكنس الأنهار[١٥٩].

وتوعد الله تعالى كل من يمتنع عن استخراج الزكاة والصدقات، وكل من لا يجود بماله إذا أوتي سعة في الرزق ووفرة من الخيرات بالخزي في الحياة الدنيا، إذ يساق سوقاً إلى وهدة الفقر والعوز، وتنصب عليه لعنات المسكنة والحاجة، وتحيط به الذلة والهوان من كل جانب[١٦٠].

وكل من يساعد الفقير والمحتاج والبائس فهو الذي يسهم إسهاماً فاعلاً في إقامة مملكة الله على الأرض، فينال رضا الله وحسن ثوابه، أما من لم يتصدق فهو الذي يساعد الشيطان، ويعينه على إقامة دولته الباطلة في الأرض، ورد ذلك ضمن حوار في الابتساق لملاك الله مع أنثى الشيطان، فقال لها ملاك الله:

«يا شقية يا عديمة الخير، من هو أول ذكورك؟

أجابت أنثى الشيطان: أيها الملاك الطاهر ذو القامة المديدة والوجه الجميل، أول ذكوري هو من إذا طلب منه أخوه المؤمن شيئاً لا يتصدق به، ولو بشيء زهيد من الأموال التي جمعها، هذا هو الذي يحبلني كما تحبل سائر الإناث بوضعهم النطفة فيهم.

فسأل الملاك أنثى الشيطان، وكيف يبطل ذلك؟

أجابت: إن ما يبطل ذلك هو أن يتصدق الرجل المؤمن ولو بشيء زهيد من الأموال التي جمعها دون أن يطلب منه، بهذا يفنى حملي»[١٦١].

لم يصاحب في الماضي تقديم الزكاة والصدقات أي مظهر يفسد جمال العبادة

فيها، أو يشوه جلال الفريضة، وعندما تدهور الدين وحرف وضعف في نفوس الناس أدخلت طقوس معقدة ذات مسحة وثنية قبيحة عرفت بطقوس التقدمة[١٦٢] توقد فيها النار، ويرتدي الموابذة ملابس خاصة، ثم تقدم الصدقات لمن كان حاضراً من الفقراء والمحتاجين، وبعد التقديم على الموابذة صيانة الملابس والأدوات التي شاركت في أداء الفريضة.

أما في حالات الأضحية والقرابين فكان الزرادشتي يقود الحيوان إلى محل طاهر ويغطي رأسه بقلنسوة مكللة بالرياحين، ويبتهل إلى الله لأجل عمران البلاد ونجاح أبنائه وأبناء إخوانه في الدين، وبعد أن يجزئ الضحية ويغلي لحمها على النار يجمع حشيشاً رطباً يبسطه على الأرض ويضع عليه اللحم بترتيب، ومن الضروري أن يكون أحد المجوس أو أي أحد من غير ملته موجوداً ليلحن لحناً مخصوصاً بالأمور المقدسة، ثم بعد هنيهة يأخذ اللحم ويتصرف به كيف يشاء[١٦٣].

د - العمل:

نظرت الشريعة الزرادشتية للعمل من زاويتين:

الأولى: من حيث هو عبادة فجعلته الطريق المقرب إلى الله تعالى والوسيلة المثلى لكسب رضاه، ونوال ثوابه يوم القيامة، وعلى هذا فالشريعة جعلت من أداء المؤمن لعمله بإخلاص وتفان، وبجد ونشاط وحيوية المظهر الخارجي لأداء المؤمن واجبه نحو ربه.

الثانية: من حيث هو علاج ناجع للنفس فجعلته أفضل وسيلة لتطهير النفس وترقيتها في مدارج الكمال، وتهذيبها من دنس الاستجداء، ومن استعباد الغير لها بالإحسان.

ومن جملة أعمال كثيرة يمارسها المؤمن لتحقيق تلك الغايات تبوأت الزراعة المنزلة الأولى، فحث عليها الدين، وعدّها من أفضل الأعمال وأحبها لله تعالى، بل إن زراعة الأرض والعكوف على إصلاحها يقرب المؤمن ربه أكثر من صلاته وصيامه وزكاته وسائر عباداته.

ولهذا السبب لفت الله تعالى أنظار عباده إلى أربعة مواضع يجب احترامها وتبجيلها، تشغل الأرض وحدها نصفها وهي:

ويسعدها، وهو حبيب الله الذي يجب على الكل محبته والإحسان إليه، وفي اليسنا ورد دعاء لزرادشت يطلب فيه من ربه أن يحفظ الفلاح من كل سوء يناله ممن لا يقدر قيمة عمله من أهل الكفر والنفاق قال فيه:

«أتوسل إلى الله بأيد مرفوعة أن يقبل دعائي بألا يحل الألم بأولئك الذين يعيشون من أجل الحق، ولا بالفلاحين الذين يعملون بجد في الأرض من أجل رخاء البلاد وخير العباد، وأن يحل الأذى بأهل النفاق والأشرار الذين يعيشون بينهم»(١٧٢).

ويحتل الاهتمام بالماشية والحيوانات الأليفة المقام الثاني بعد الزراعة مباشرة، وفي بعض الأحيان تتساوى الماشية مع الزراعة في الأهمية، يؤيد ذلك كثير من نصوص الابتساق التي أوجبت على المؤمن العناية بماشيته عنايته بأرضه.

ولم يقتصر الأمر على المساواة فحسب بل تعداه إلى حد طلبت فيه الشريعة بما يشبه الفرض الرأفة بالحيوانات، حية أو حين ذبحها، وألا يذبح منها إلا ما تقتضيه الحاجة، وأكبر جريمة ترتكب في حق الحيوان النافع هي اللهو بقتله في الصيد وغيرها من ضروب اللعب، ووصفت أولئك الذين يقسون عليها بأعداء الحياة، وبشرت الذين يعنون بها بالجزاء الحسن يوم القيامة.

وعندما سأل زرادشت ربه عن المكان الذي تبلغ فيه الأرض أقصى سعادتها، أجابه قائلاً:

«هو حيث ينشئ المؤمن داراً، فيها زوجة صالحة مع أولاد، مع قطيع جيد، فتنمو في هذه الدار الماشية وتتناسل، ويكثر روثها، فيكثر السماد، فينمو العلف، وتنمو المرأة، وينمو الولد، وينمو الكلب، وينمو كل شيء صالح للعيش(١٧٣).

ويقول زرادشت في نصيحة له لمربي الماشية:

«ليكن الله في عوننا كي نسعد، فهو الذي يحمي الحيوانات النافعة، وهو الذي ينشر السلام بين المخلوقات الطيبة والحيوانات كلها في رعايته، إن من يريد النور عليه أن يحافظ على الحيوانات الأليفة النافعة ويرعاها ويهيئ لها مكاناً أميناً وعليه أن يدافع عنها إذا أوقع بها قساة القلوب في غفلتهم عذاباً، ويجب ألا يعطى الحيوان لرجل جبار، وعلى المؤمن أن يدبر للماشية علفها في الصيف حتى لا يجبرها على

الخروج في برد الشتاء القارص، وحرام على المؤمن أن يبعد عنها صغارها وأن يحرمها من ألبانها، فإن الحيوانات الأليفة في هذه الدنيا لله تعالى[١٧٤].

ويوصي زرادشت بالأنثى من الحيوانات، ويخص الحامل منها بعناية خاصة تصل حد وجوب الرحمة بها فيقول:

«يجب على من استرعاه الله أنثى أن يعنى بها سواء كانت ذات رجلين أو من ذوات الأربع»[١٧٥].

ومما يتصل بالماشية أولى الابتساق في نصوصه القديمة والحديثة الكلب اهتماماً يلي في المرتبة الثور النافع المانح للخير، لأن الكلب هو الحيوان الأليف الذي يستخدم في حراسة الماشية وحمايتها، وفي حراسة أموال الناس، جاء ذلك في قول الإله للمؤمنين:

«أنا الله خلقت الكلب مجلبباً بنفسه، منتعلاً بنفسه، حارساً متيقظاً حاد الأسنان، مولوداً ليكسب قوته من الإنسان، وليحرس أمواله، جعلته قوي الجسم على الأشرار وكل من يستيقظ على صوته، لن يحمل لص ولا ذئب شيئاً من بيته بغير تحذير»[١٧٦].

وللكلب سبع خصال وطبائع هي التي قربته من المؤمن وقربت المؤمن منه، ولها – كما جاء في الفنديداد – ما يقابلها عند البشر، فله طبع الكاهن والمحارب والفلاح والمغني المتجول واللص والفاجرة والطفل.

* فهو يأكل ما تبقى من الطعام كالكاهن، وقنوع يرضى بالقليل كالكاهن، وصبور يكتفي بقطعة خبز كالكاهن.
* وهو يسير في مقدمة الركب كالمحارب، ويقاتل دفاعاً عن الماشية كمحارب، ولا يخاف كمحارب، ويموت دون صاحبه كمحارب.
* وهو شديد الانتباه لا ينام إلا نوماً خفيفاً كفلاح، وهو أول من يخرج من البيت وآخر من يعود إليه كفلاح.
* وهو متقلب ويفتقر إلى التهذيب، ويجرح كل من يقرب منه كالمغني المتجول.
* وهو يحب الظلام كاللص، ويجوس في الليل ويأكل دون حياء كاللص، ويخون إذا استودع شيئاً كاللص.

* وهو مولع بالغناء كالفاجرة، ويطوف في الطرقات ليلاً كالفاجرة، ومتقلب المزاج كالفاجرة.
* وهو يحب النوم كالطفل، ويحفر الأرض بيديه كالطفل، ورقيق كالطفل، ويخرج لسانه كالطفل(١٧٧).

أما الحيوانات التي لا يستفاد منها وغير الأليفة، والحشرات المهلكة الضارة والسارقة للمحاصيل، فقسمت جميعها إلى طيبة وخبيثة(١٧٨):

* فالطيب منها ما حسن عمله، وتظل محتفظة بطيبتها ما دامت على قيد الحياة، فإذا فارقتها الحياة استحالت أجسامها إلى رجس ونجس، مثل القنفذ قاتل الفار سارق الحبوب، ومثل الديك الذي يوقظ عباد الله لصلاة الفجر، ولا زالت مثل تلك المخلوقات لها عند المجوس في الهند وإيران حرمة وتقدير واحترام.
* والخبيث منها ما خبث عمله، وصدر عنه الشر والضرر للناس مثل الأفاعي والحيات والعقارب والفئران والضفادع والذباب والقطط، وإبادتها والتخلص منها مما يتقرب به المؤمن إلى الله، وبقتلها تغفر الذنوب وتمحى الخطايا.

ثالثاً – الأسرة:

أوجب الله تعالى على كل مؤمن الزواج لكي يبني أسرة ويقيم بيتاً، وأحل له الزواج بأكثر من واحدة(١٧٩)، إذا كان ميسور الحال وقادراً على الإنفاق، وإذا كان مضيقاً عليه ومحدود الرزق فيكتفي بزوجة واحدة، لأن الله تعالى أول ما يرضى من عبده أن يختار له زوجة، وينشئ لزوجته وأولاده داراً يعيشون فيها، يقول تعالى مخاطباً زرادشت:

«وأنا أقول لك يا زرادشت الطاهر، إن الرجل المتزوج أفضل وأعلى قدراً من الأعزب، والرجل الذي يملك داراً أفضل من الذي لا دار له، والرجل الذي له أبناء أفضل ممن لا أبناء له، والرجل الغني أفضل من الفقير»(١٨٠).

والزواج في الزرادشتية من أجل أنواع العبادات التي يتقرب بها إلى الله تعالى، ومن مجموع الأسر الصالحة يتكون المجتمع الصالح، وفيه ينشأ الأبناء الذين يعبدون الله ويعمرون أرضه، ويتفانون في نشر دينه، وشبهت أدبيات الابتساق عظم

شأن الأسرة بالأرض، فإذا كانت الأرض لا تصلح إلا بالإخصاب، كذلك حال الإنسان لا يصلح إلا بالأسرة الصالحة والبيت الصالح الذي يضم الزوجة والأطفال.

والامتناع عن الزواج وبناء الأسرة مما ينهى عنه الدين، وبلغت سنة الزواج بتقادم العهد حد القداسة، ثم أصبحت في أيام الساسانيين أساساً يمنح بموجبه الزرادشتي حق المواطنة الكاملة، ويتفاوت قدر رب الأسرة في نظر المجتمع على قدر ما ينجب من أبناء، أما الأعزب الذي يعيش وحيداً بلا زوجة ولا أولاد، فلا نصيب له في الحياة العامة(١٨١).

يتبع في بناء الأسرة نفس الطريقة المتبعة في الشريعة الإسلامية والمستندة إلى حرية الاختيار للطرفين معاً، الرجل والمرأة، وبعد الخطبة التقليدية يدفع الرجل إلى العروس أو من يقوم مقامها في الولاية المهر المتفق عليه سلفاً، وللعريس الحق في استرداد ماله في حالات معينة أبرزها العقم.

وتنتقل ولاية الزوجة وأهلية الإشراف عليها بعد عقد الزواج مباشرة إلى زوجها، حينئذ يكون له الحق في التصرف فيما تملكه من مال أو عقار، ولكن برضاها لا بموجب حق كفله له الدين، لأن للمرأة كيانها المستقل في الشريعة ولا تذوب ذاتها ولا تتجرد من شخصيتها تحت ولاية الرجل، فلها حق التملك وحق التصرف فيما تملك بحرية تامة، بل في وسعها إدارة شؤون زوجها باسمه أو بتوكيل منه.

أقيمت العلاقة بين الزوج والزوجة والزوج والأولاد على المحبة والتوادد والتراحم بلا تسلط ولا تجبر من فرد واحد على الآخرين، ولا سلطان للزوج على زوجته إلا ما منحه له الدين وفي حدود ولايته عليها. فكان من الطبيعي كما يحكي المؤرخون(١٨٢) أن تجتمع الأسرة كلها حول مائدة الطعام، والخروج معاً إلى الحفلات والمناسبات الدينية والأعياد، وزيارات الأهل والأرحام، وحضور الولائم التي يدعون إليها، وظل الائتلاف يسود الأسرة لفترات طويلة إلى أن غلب التحريف والتغيير على فروع الدين فذهب بكثير من فضائل الأسرة الزرادشتية.

وقد حافظت الشريعة على كرامة ربة البيت والقيمة عليه وفرضت احترامها على الجميع، فأوجبت عليها ارتداء الحجاب الساتر، وما لا يجوز كشفه شرعاً، وألزمتها المكوث في بيتها فلا تخرج منه إلا للضرورة القصوى كمشاركتها لزوجها

في عمله، أو خروجها هي بنفسها للعمل إذا لم يكن لها معيل، وما دون ذلك فعليها التفرغ لتربية الأولاد وللأعمال المنزلية، وفي داخل البيت لها جناح مخصوص لا يحق لها الاختلاط بغير أهلها ومحارمها، وفي حدود ضيقة تفرضها صلة الرحم.

وبعد حكم دارا[١٨٣] تشدد الفقهاء مع المرأة تشدداً لا مبرر له ولا أصل له في الشريعة. فلم يسمحوا لها بالخروج إلا في هودج لا يرى ما بداخله. وحظر عليها الاختلاط بالرجال في المجتمعات العامة والخاصة، حتى حيل بين المتزوجات منهن وبين رؤية أحد الرجال ولو كان أقرب الناس إليها كأبيها وشقيقها.

ومن جانب آخر خفف الفقهاء كثيراً على المرأة الفقيرة، ومن لا عائل لها، فسمح لها بحرية التنقل والاختلاط لاضطرارها إلى العمل والكد في سبيل الرزق، وقيدت حريتها في الحركة في حدود ما تفرضه عليها الشريعة من واجبات وأهمها الحجاب، وألا تتجاوز في الاختلاط دائرة العمل أو ما هي خارجة من أجله.

ومن الأمور التي أثارت دهشة المؤرخين وإعجابهم الشديد عدم وجود صورة أو رسم لامرأة فارسية في كل ما خلفته الحضارة الفارسية، سواء كان ذلك في النقوش أو التماثيل الحجرية المنحوتة[١٨٤]، وفي هذه الظاهرة دلالة على صيانة الشريعة الزرادشتية للمرأة من التبذل، فلم يجز ذكرها أو رسمها في أي صورة من الصور، تقديراً لنبل دورها في الحياة، واحتراماً لمكانتها في المجتمع.

وصيانة لقدسية الرابطة الزوجية أوصت الشريعة المرأة المؤمنة بالطهارة والعفة والسمعة الحسنة، وشبهت ما تلك صفاتها بالملائكة، أما المرأة السيئة السمعة فعديمة النفع، ولا فائدة ترجى من وجودها، واعتبرت الزانية من النساء سبباً في تدنيس العرض والأرض، ومجلبة لغضب الله تعالى، ويصفها الابتساق قائلاً:

«إن المرأة التي يختلط فيها بذر الصالحين بالطالحين، بذر عباد الرحمن بعباد الأصنام، تلك هي المرأة الزانية، إن نظرها يجفف المياه المنحدرة من الجبال، نظرها يعطل نمو النباتات الجميلة ذات الألوان الذهبية، وقربها يفسد على المؤمن إيمانه وقوته وعزمه، إن الزانية تستحق الموت أكثر من الأفاعي السامة والذئاب العاوية، وأكثر من الذئاب المتوحشة التي تهاجم زرائب الحيوانات الأليفة»[١٨٥].

ولا تختل حركة الوجود وتفقد توازنها وانسجامها في شيء مثل تفكك أسرة

لأحد المؤمنين، وتشتت شمل أفرادها بالطلاق أو بالموت أو بتشردها في الأرض بفعل غاصب أثيم، حينها يعم الحزن، ويسود الأسى، وتفقد الحياة قيمتها ومعناها، وعندما سأل زرادشت ربه عن خامس مكان تحزن فيه الأرض أكثر من غيره أجاب قائلاً:

«إنه المكان الذي تسير زوجة مؤمن وأولاده في طريق السبي، تلك الطريق المغبرة والموحشة والقاحلة، رافعين بالبكاء أصواتاً محزنة، باعثين الحزن في القلوب»(١٨٦).

إن غاية اهتمام المشرع بالأسرة يدور في الغالب الأعم حول البيئة الصالحة للأبناء عباد الله وخلفائه في أرضه، ولتحقيق هذه الغاية الدينية حافظت الشريعة على سلامة الحامل فحظرت من مجامعتها في أثناء شهر الولادة، مثلما منعت الاقتراب منها في أثناء فترة الحيض(١٨٧)، وفي الوقت نفسه حرمت الإجهاض تحريماً قاطعاً لما فيه من وأد خفي للذرية، وامتد تحريم الإجهاض ليشمل حتى الحمل خارج إطار الزوج الشرعي، جاء في الابتساق:

«إذا زنى رجل بفتاة، سواء كانت عذراء أو لم تكن متزوجة وأحبلها، وقالت الفتاة أنا حبلى من هذا الرجل، فإذا قال لها ابحثي عن عجوز خبيرة بالأعشاب والعقاقير المسقطة للجنين، وأتت العجوز بأي عقار يقتل ما في الرحم، أو أي نوع من هذه الحشائش، فإن الرجل والفتاة والعجوز يكونون مرتكبين لجرم عظيم، ولخطيئة كبرى»(١٨٨).

بعد تأمين سلامة الذرية تأتي سلامة الأم على رأس الاهتمامات، فحددت لها قواعد دقيقة لا بد من اتباعها في أثناء فترة الحمل وعند الولادة، من حيث نظافتها ووقايتها من الأمراض المؤثرة على صحتها وصحة جنينها، وقبيل الولادة يجب إشعال الضوء في غرفتها إلى حين الوضع. ويبقى الضوء مشتعلاً لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال بجانب الوليد، وفترة النفاس مدتها أربعون يوماً، في نهايتها تستحم الأم وتغتسل لتمارس حياتها وعبادتها كسائر المؤمنات.

والنفساء عند مجوس الهند اليوم تظل نجسة طوال فترة النفاس، لا يجوز لها لمس أحد ولا يجوز لأحد لمسها، وإلا سرت النجاسة للجميع، فتصبح كالمنبوذة لا

يقربها ولا يقترب منها أحد، إلا في حالات تعرض حياتها للخطر، كالمرض الشديد، عند ذلك جوزوا الاختلاط بها ورعايتها.

فمثلاً إذا دعي طبيب لعلاج امرأة أو لفحص المولود تحاشى رب المنزل مصافحته لكي لا تنتقل إليه النجاسة، وعند خروجه يقف بعيداً ويشير له إلى طريق الخروج، وإذا كان الطبيب من أبناء الملة، فلمعرفته بقواعد الطهارة يغتسل ويستحم ويغير ملابسه قبل أن يغادر المنزل(١٨٩).

ويستند زرادشتيو الهند في كل ذلك على الفنديداد(١٩٠) بصفة خاصة، إذ إن فيه فصولاً بكاملها تتحدث عن نجاسة المرأة بعد الولادة، ونجاسة كل ما تلمسه بما فيها الأدوات التي تستخدمها في حياتها اليومية، ثم وضع لها قواعد تطهير معقدة لنجاستها ولنجاسة من لمسها أو لمسته، وبرغم اقتناعهم اليوم بشذوذ نجاسة النفساء وخروجها عن كل معقول، وسخف إجراءات التطهير - كما هي عليه الآن - إلا أنهم لا يستطيعون تغييرها، فهي كما يرون حكم الله المنزل في المرأة، وكل تغيير فيه تغيير لشريعة الله، وكبيرة من الكبائر الموجبة للعقاب في الدنيا والآخرة.

وتعد ولادة الطفل حدثاً عظيماً يفرح له الجميع، ونعمة كبرى من نعم الله الداعية للحمد والشكر، أما عدم الإنجاب فيعد فاجعة أليمة ودلالة على عدم التقوى، وضعف في الإيمان، لأجل ذلك كانت الصدقات توزع على الفقراء عقب ولادة الطفل مباشرة، وإبان تقهقر الدين وانحسار تأثيره في النفوس تقلصت تلك المظاهر، وفقد من بقي منها معناه التعبدي، وما يمارس منها اقتصر على الولد دون البنت، لاعتقادهم أن ولادة الذكور ثروة اقتصادية، وولادة الإناث تجلب اللوعة والحسرة، بل كان البعض منهم يدعون الله في صلواتهم ألا يرزقهم ببنات يشقى في تربيتهن ليجني فائدتهن غيره(١٩١).

جرت العادة على إضاءة مكان الوليد بسراج لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال خوفاً عليه من الشيطان وأعوانه، وألا يقترب منه نجس كالمرأة الحائض مثلاً، كي لا يكون ذلك سبباً في شقائه وتعاسته وسوء حظه في الحياة وما عدا ذلك كالرضاعة وحلق شعر رأسه للمرة الأولى في حياته فيتم وفقاً للشريعة لا العادة والعرف المتبع(١٩٢).

ومما لم يطرأ عليه تغيير يخل بمفهومه التعبدي إجماع النصوص التشريعية

على أن كثرة البنين في الأسرة بركة، وفضيلة من الفضائل، وكلما كثر أبناء الرجل ازداد قرباً من الله.

ونحا الفرس الزرادشتيون بأسماء أبنائهم منحى دينياً صريحاً، مع الابتعاد التام عن الأسماء الوثنية القديمة، بل يرون في إطلاقها على الأبناء إثماً وإحياء لماض نسخه الدين الحق ومحاه من الوجود.

ومن الأسماء الدينية التي شاعت بينهم حتى ظهور الإسلام نذكر من أسماء الذكور يزد بوخت (الذي خلصه الله)، أما أسماء الإناث فقد اتخذت نفس المنحى ولكنها في الغالب ما تختم بكلمة دخت (بنت)، مثل هرمز دخت (بنت الله) واذر ميدخت (الفتاة الطاهرة).

وأطلقت أسماء الملائكة من الزاوية الدينية نفسها على الأطفال، فكانوا يسمون أبناءهم بوهرام وتراعنا ونرسي، وقد يسمى الواحد منه باسم مركب من أسماء ملكين مثل مهرنرسي، وهو للملكين ميثرا ونيريوسنها.

وقد يتضمن الاسم في أحيان كثيرة فألاً حسناً مثل بيروز (الظافر) ونام ويه (صاحب الاسم الطيب)، وقد يطلق في أحيان أخرى على الطفل اسم يعبر عن علو نسبه وكريم محتده مثل شابور (ابن الملك)، وغلب على أسماء البنات صفات المدح مثل شيرين (الناعمة) ووردك بمعنى (الزهرة).

تمسك الزرادشتيون بهذه السنة في تسمية أبنائهم حتى المراحل الأخيرة من التحريف في الدين بدخول النار في العقيدة كقبلة للعبادة، وكرمز مقدس محسوس لله تعالى في عليائه، فأطلقوا على أبنائهم أسماء تضاف إليها كلمة النار مثل اذر بزي (النجاة بالنار) واذر خورشيد اذر (نار شمس نار)، كما سموا أبناءهم أيضاً بأسماء معابد النار الكبيرة مثل كشنسب فر (من له مجد كشنسب)[١٩٣].

يظل الوليد في حضانة أمه حتى الخامسة من عمره ثم يحتضنه والده حتى السابعة، ومن السابعة يأخذون في تربيته وتعليمه وكان التعليم يتولاه رجال الدين والمتعلمون من أبناء الملة، وكانت المواد الدراسية تشمل العقيدة الدينية بأصولها وفروعها والطب والزراعة وتربية الماشية، وبعض فنون القتال مثل ركوب الخيل والرمي بالقوس والنشاب، ويقتصر تعليم البنات على الدين والتدبير المنزلي، ويسمح للبعض منهن بالتعمق قليلاً في العلوم التجريبية ولكن من غير تخصص دقيق.

وإذا صح ما رواه عنهم هيرودوتس فيكون لزوم الصدق وحب الحقيقة من المقررات الدراسية الرئيسية من سن الخامسة حتى سن العشرين[١٩٤]، إذ ليس هناك شيء كما يعتقدون باعث على الخزي مثل الكذب وخداع الناس وعدم الوفاء بالوعد، أما حب الصدق والحقيقة فينبغي أن يكون أكثر تألقاً في قلب المؤمن من الشمس[١٩٥].

يقول هيرودوتس عن حبهم العميق للصدق:

«ومن المحظور عليهم أن يتكلموا عما هو غير مباح لهم عمله ولا شيء عندهم أقبح عيباً من الكذب ثم الاستدانة، وذلك لأسباب أخصها أن المدين يضطر إلى الكذب»[١٩٦].

وعلى أي حال فقد كان المنهج المتبع في التعليم يختلف باختلاف مراحل العمر، ففي المراحل الأولى يلقن الطالب العلم تلقيناً، وعندما يصل سن العاشرة يقرر عليه حفظ المادة الدراسية وتكرارها، أما العلوم التجريبية فهذه يمارسها الطالب ممارسة بمعاونة أساتذته، ومن الخامسة عشرة حتى العشرين – وهي مرحلة الاكتمال العقلي والجسماني – فقد اقتصرت المواد الدراسية على حفظ أجزاء من الابتساق عن ظهر قلب، وتاريخ الأجداد وأبطالهم المشهورين[١٩٧].

رابعاً – الأعياد الدينية:

يدعي المجوس اليوم أن أعياد أسلافهم الدينية كانت سبعة، الاحتفال بها والفرحة فيها مما شرعه الله تعالى لهم، وأول من وضع أسسها هو زرادشت نفسه، فاكتسبت على مدار السنين قداسة عظيمة تجعل من إهمالها وعدم الاكتراث بها خطيئة وجرماً يعاقب عليه مرتكبه تماماً مثلما يعاقب على إهماله للعبادات المفروضة شرعاً.

وعلى الرغم من أن أغلب أعياد قدماء الفرس يسودها الطابع الديني إلى حد كبير ككل شيء في حياتهم، فإن هناك عيدين فقط يمكننا القول بشيء من الاطمئنان إنهما من تشريع الله تعالى لهم، ومما وضع أسس الفرحة فيه زرادشت، أما بقية الأعياد فهي مناسبات اجتماعية تحولت بتعاقب الأزمنة إلى أعياد مصحوبة بالأفراح الشعبية، ومقترنة دوماً بمواسم الزراعة، وحلول فصلي الشتاء والصيف، ثم أخيراً ابتدعوا عيداً أو أعياداً للنار.

وفيما يلي استعراض لعيدي النوروز والمهرجان أكبر الأعياد عند الزرادشتيين، وهما وحدهما اللذان لا زال المجوس في إيران والهند يعنون بهم عناية فائقة.

النوروز:

نوروز كلمة فارسية قديمة مركبة من نو بفتح النون وضمها بمعنى الجديد، وروز بمعنى اليوم، فيكون المعنى اليوم الجديد[١٩٨]، ويوم النوروز كعيد يوافق حسب التقويم الفارسي القديم اليوم السادس من شهر فروردين الموافق ٢٧ مارس من كل عام[١٩٩].

في يوم العيد هذا يفعل الزرادشتيون نفس ما يفعله المسلمون في أعيادهم الدينية، فيصحو الواحد منهم مبكراً، لاعتقاد سائد بينهم بأن أسعد ساعات يوم العيد هي ساعة الفجر، فيتبرك بالنظر إليه، ثم يغتسل ويتطهر ويتعطر ويرتدي الملابس الجديدة البيضاء التي اشتراها خصيصى ليوم العيد، ثم يؤدي وحده صلاة الفجر سائلاً الله تعالى الرحمة له ولأهل بيته، وطالباً منه المغفرة على ما ارتكبوه في حقه وما اجترحوا من سيئات في العام الماضي.

يذهب بعد ذلك إلى أقرب معبد من بيته فيجتمع مع إخوانه في الدين لصلاة العيد في جماعة، وفي الصلاة يدعون بأدعية كثيرة لا تخرج عن طلب الرحمة والرضوان، بانتهاء الصلاة يوزع ما عنده من صدقات على الفقراء والمحتاجين، ثم يزور أقاربه وجيرانه مهنئاً بالعيد والسنة الجديدة، وباقي اليوم يقضيه مع أفراد أسرته في فرح وبهجة.

ومن اليوم الثاني للعيد حتى السادس منه يجتمع الناس في الأماكن العامة والحدائق، وفي المنازل، ومعهم الأطعمة الفاخرة، لا فرق بين غني ولا فقير، ففي هذه التجمعات تزول الفوارق بين أبناء الملة، وتتلاشى الخصومات، وتتجدد الصداقات، وتظهر محبة بعضهم لبعض كأمة واحدة جمعت بينهم العقيدة، وقوت من روابطهم الاجتماعية الشريعة[٢٠٠].

ويحتفل المجوس في وقتنا الحاضر وخاصة مجوس الهند بعيد النوروز في اليوم نفسه تقريباً، ولكنهم يسمونه بعيد Paitit أي عيد التوبة، إذ الغالب على الصلاة

فيه، وعلى أدعيته وما يرتل فيه[٢٠١]، هو طلب المغفرة من الذنوب، والاعتراف بالخطايا وتجديد الإيمان.

وما يفعله مجوس الهند في عيد التوبة هو نفس ما كان يفعله أسلافهم في فارس القديمة مع تغيير طفيف، فيصحو الواحد منهم مبكراً فيغتسل بالماء النظيف، ثم يؤدي صلاته بتمجيد الله ملتمساً المغفرة لذنوبه التي اقترفها طيلة العام المنقضي، يذهب بعدها إلى معبد النار حاملاً معه حزمة من خشب الصندل هدية للمعبد، وهناك يستأنف الصلاة ليستعيد حب الله ورحمته، وإذا انتهت الصلاة وزع الصدقات على الفقراء من رجال الدين والمحتاجين من أبناء ملته، ثم يقوم بزيارة الجيران والأهل والأقارب، ويقضي بقية اليوم مع أفراد أسرته في فرح وسرور[٢٠٢].

والرواية التي حكاها البيروني عن الاحتفال بعيد النوروز أيام الساسانيين، وهي فترة الازدهار الثانية للدين تختلف عما كانت عليه في فترة الازدهار الأولى، وعما هو عليه اليوم، فيقول واصفاً حالهم يوم العيد:

«في هذا اليوم يصحون مبكرين لاعتقاد سائد وسط عوامهم بأن في هذه الساعة من اليوم تقسم السعادات لأهل الأرض، وفيها وصلت مناجاة زرادشت إلى ربه، وفيها فرغ الله من خلق الخلائق، وقبل أن ينطق أحدهم بكلمة يأكلون قطعة من السكر، ويلعقون العسل ثلاث مرات ويدلكون أجسامهم بالزيت، ويتبخرون بثلاث قطع من الشمع ليحفظوا أنفسهم من الأمراض والآفات.

يخرجون بعد ذلك من منازلهم إلى مجاري الأنهار والقنوات للاستحمام، وربما استقبلوا المياه الجارية، فيفيضون على أنفسهم منها تبركاً، وفيه يرش الناس الماء بعضهم على بعض، وسببه أن رش الماء إنما هو بمنزلة التطهر مما اكتسبته الأبدان من دخان النار وما التزق بها من أدناس الإيقاد، ولأنه يدفع عن الهواء فساده المولد للأوبئة والأمراض»[٢٠٣].

هذا كله على المستوى الشعبي، أما على المستوى الرسمي فالدولة تحتفل بالعيد لمدة ستة أيام متواصلة احتفالاً مهيباً، من أبرز مظاهره إيقاد النيران طوال أيام العيد، وتقضى حاجات المحتاجين، ويطلق سراح المسجونين، ويعفى عن المجرمين، ويعطل دولاب العمل في الدولة ليستريح الناس ويبتهجون بفرحة العيد.

أما برنامج الملوك خلال أيام العيد فهو كالآتي:

* في اليوم الأول يعلن الملك على الناس بجلوسه في القصر ليتقبل تهاني العيد من العامة، فلا يحجب عنه أحد منهم، وفيه تقدم له الهدايا.
* وفي اليوم الثاني يستقبل من هم أرفع مرتبة كالدهاقنة وأهل البيوتات.
* وفي اليوم الثالث يستقبل الأساورة وعظماء الموابذة.
* وفي اليوم الرابع يستقبل أهل بيته وقرابته وخاصته.
* وفي اليوم الخامس يستقبل أولاده وصنائعه، فيقدم إلى كل واحد منهم ما يستحقه من الإكرام والرتب والإنعام.
* فإذا جاء اليوم السادس تنورز كما يقول البيروني لنفسه، ولم يصل إليه إلا أهل أنسه ومن يصلح لخلوته، ويأمر بإحضار ما قدم له من الهدايا، فيفرقها على من يشاء ويودع في خزائنه ما يشاء(٢٠٤).

المهرجان:

بعد ستة أشهر ونصف من عيد النوروز يحتفل الزرادشتيون بعيد المهرجان، وعيد المهرجان من الأعياد التي لم يصل إلينا من مراسمه وما يجري فيه من احتفالات شيء يمكن نسبته إلى زرادشت، وحتى فرضية العيد من الوجهة الدينية ليس عندنا ما يدل عليها، اللهم إلا ما رواه سلمان الفارسي رضي الله عنه حيث قال:

«كنا على عهد الفرس (المجوسية) نقول إن الله أخرج زينة لعباده من الياقوت في النوروز، ومن الزبرجد في المهرجان، ففضلهما على غيرهما من الأيام كفضل الياقوت والزبرجد على سائر الجواهر»(٢٠٥).

والعارفون من رجال الدين الزرادشتي يؤكدون صلته بزرادشت فيقولون:

«أخذ الله ميثاق النور والظلمة يوم النوروز والمهرجان»(٢٠٦).

ويقول أحد موابذة الفرس أيام العباسيين:

«إذا كان يوم المهرجان طلعت الشمس بهامين الوسط، النور والظلمة، فيفنى الأرواح من الأجساد ولذلك سمته الفرس (ميركان)»(٢٠٧).

وتتفق أقوال العلماء مع الاعتقادات الشعبية في إضفاء السمة الدينية والتعبدية على العيد، فيقولون:

«في يوم المهرجان دحا الله الأرض، وخلق الأجساد قراراً للروح، وفيه كسا الله الفجر بهاءه وجاله بضوئه بعد أن كان خلقه كرة سوداء لا ضوء فيها، ومن أجله قيل إن القمر في المهرجان يوفي على الشمس، وأسعد ساعات اليوم هي ساعات الفجر»[٢٠٨].

وكل من أرخ لعيد المهرجان إنما أرخ له في الفترة الساسانية وما بعدها، ولا يعرف عنه شيء ولو بالاجتهاد في الفترة التي سبقت غزو الإسكندر المقدوني لبلاد فارس، يقول البيروني:

«إن عامة الفرس كانوا يبكرون في النهوض في صبيحة يوم العيد ويطعمون شيئاً من حب الرمان، وشم ماء الورد لاعتقادهم أن من فعل هذا دفعت عنه آفات كثيرة، وفيه يقام سوق كبير يحفل بكل ما يدخل البهجة والفرح على القلوب»[٢٠٩].

ويشارك ملوك بني ساسان شعبهم فرحته بحفلة رمزية يتوجون فيها أنفسهم بتاج عليه صورة الشمس وعجلتها الدائرة عليها لاعتقاد عوام الناس أن الشمس ظهرت لأول مرة للعالم في هذا اليوم، ويسبق التتويج كما جرت العادة وقوف رجل في صحن دار الملك وقت إسفار الصبح ويقول بأعلى صوته، يا أيها الملائكة انزلوا وامنعوا الشياطين والأشرار وادفعوهم عن الدنيا[٢١٠].

أما بقية الأعياد فأغلبها مناسبات اجتماعية عادية أخذت بمضي الزمن السمة التعبدية.

فعيد (ريبثوان)[٢١١] مثلاً لم يكن في الأصل سوى مناسبة اجتماعية يحتفل فيها الناس بحلول فصل الصيف، ولكن عمق التدين عند الفرس، وسيادة الدين في واقع الحياة أضفى عليها مسحة دينية فتحولت إلى عيد ديني كبير كعيد النوروز، فيقام له احتفال كبير يحضره سائر المؤمنين في المعبد الرئيسي بالمدينة، وفيه تؤدي الصلاة، وترتل الأدعية والابتهالات.

ومثل ذلك أيضاً عيد (خرم روز) (اليوم السعيد)، وفيه يجلس الملك على الفرش البيض في الصحراء، ويلبس الثياب البيضاء، ويرفض الحجبة وهيبة الملك

ويتفرغ للنظر في أمور الدنيا وأهلها، ومن احتاج أن يكلمه في شيء دنا منه رفيعاً كان أو وضيعاً، وخاطبه غير ممنوع عن ذلك، ويجالس الدهاقين والمزارعين ويؤاكلهم ويشاربهم ويقول:

«أنا اليوم كواحد منكم، لأن قوام الدنيا بالعمارة التي تجري على أيديكم، وقوام العمارة بالملك، ولا استغناء بأحدهما عن الآخر، وإذا كان كذلك فنحن كأخوين متلائمين، سيما وذلك صار عن أخوين متلائمين»(٢١٢).

وبعد دخول النار في العبادة أخذت أعياد النيران هي الأخرى شكلاً اجتماعياً فيه مسحة من الدين المحرف، فعيد أذرجشن (يوم النار) مثلاً يحتفل به داخل الدور مع بداية حلول فصل الشتاء، مثله في ذلك مثل الأعياد الموسمية، فيوقدون النيران العظيمة في بيوتهم ويكثرون من عبادة الله وتمجيده، ثم يجتمعون على الأكل، ويزعمون أن كل ذلك لدفع البرد واليبس الحادث في الشتاء، وأن انتشار حرارتها يدفع غوائل الضر عن النبات(٢١٣).

خامساً – دفن الموتى:

تتحدث المصادر الزرادشتية الحديثة عن الإجراءات والطقوس التي تجرى على المتوفى على نحو بعيد كل البعد عما شرعه الله تعالى ومارسه الناس في أوج ازدهار الدين، وسيادة تعاليمه الصحيحة في حياتهم. لما فيها من تعقيد وبعد عن اليسر والبساطة، وهي السمات المميزة لكل تشريع سماوي.

فأول إجراء يتخذه المجوس اليوم مع المتوفى هو غسله وتطهيره ثم تكفينه في ثياب بيضاء نظيفة، وفي أثناء ذلك يردد الموبذ أو الدستور كما يسميه مجوس الهند مع غيره من رجال الدين أدعية كثيرة يطلبون فيها من الله العفو عن ذنوب الميت، وتسهيل طريقه للعبور فوق جسر الانفصال (جنفات).

ويمكن للمحتضر إذا كان مالكاً لحواسه ترتيل تلك الأدعية بنفسه، وإذا كان فاقداً لوعيه أو غائباً عن رشده رددها نيابة عنه ابنه أو أقرب الناس إليه، أو رجل الدين الخاص بالأسرة(٢١٤).

وفي كل الأحوال فقد انحصرت إجراءات إعداد الميت لمثواه الأخير على طائفة معينة من رجال الدين لا يجوز لغيرهم النهوض بها، وحدد عددهم بثلاثة، أحدهم

يؤديها والآخران يشهدان عليه، ومحرم على الثلاثة الاختلاط بالناس إلا بعد خضوعهم لإجراءات تطهير طويلة ومعقدة.

ويعود ذلك كله – كما يدعون – إلى أن خروج الروح الطاهرة من البدن يحيل جثة الميت إلى مادة بغيضة ملوثة تمتد نجاستها لكل من يلمسها، أو يقترب منها، أو يجلس بجوارها وقت موت صاحبها، بل وتمتد النجاسة حتى إلى أولئك الذين لامسوا من لامسها أو اقترب منها أو جلس بجوارها، وعلى الجميع التطهر والاغتسال من النجاسة ومن الإثم على السواء(٢١٥).

والزرادشتيون قديماً وحديثاً يظهرون حزنهم على موتاهم، ويعبرون عن ألم الفراق في صور متعددة، كأن يمشون في الجنازة حفاة حاسري الرؤوس، وكافتراشهم للتراب، وارتدائهم ملابس خاصة للحداد، ولكن من الناحية الشرعية محرم عليهم تحريماً قاطعاً البكاء على فقيدهم مهما كانت منزلته، وحرمة البكاء منصوص عليها في الابتساق حيث اعتبر من عمل الشيطان، جاء فيه:

«وسادس وأفضل البلاد التي خلقتها أنا الله هي هارويو Haroyu هاجرة البلاد، والزاخرة بأفضل الناس، قابل الشيطان المتلئ موتاً عملي هذا فأوعز للمؤمنين بالبكاء والنواح على موتاهم»(٢١٦).

وجثة الميت كما يعتقد المجوس لا تحرق بالنار لأن النار طاهرة مقدسة، لا يصح أن تلوث بما هو نجس، ولا يجوز أن تدفن في الأرض الطيبة، لأن الأرض مصدر أرزاق الناس فلا يعقل دفن الجثة النجسة في بطنها، فتحتم إذن أن يقيموا موضعاً فوق الأرض يضعون فيه جثث موتاهم سموه Dkhama أي برج الصمت، وهو وعاء أسطواني عالي الجدران لا سقف له، يبنى في مكان منعزل، وفيه يضعون جثث موتاهم أو بمعنى أدق يعرضون جثث الموتى تحت الشمس لتنهش الطيور الجارحة لحومها.

ويستند المجوس في كل ذلك إلى الابتساق الذي وصف الدفن أو الحرق بالنار كما يصف كل مخالف للشريعة بأنه من إيعاز الشيطان، وعمل من أعماله القبيحة(٢١٧)، أما عرض الجثث فقد ورد الأمر فيه صريحاً حيث قال:

«وهناك في قمم الجبال يتركون الجثة للطيور اللاحمة، لأشره الطيور اللاحمة،

للنسور التي خلقها الله قائلين، إن هذا المؤمن يندم على كل ما جنته يداه من شرور، وما اقترف من ذنوب، وأنت وحدك يا قدوس الذي تقدر ندامته، وتغفر له بندامته»[٢١٨].

تبدأ مراسم العزاء والحداد عقب إيداع الميت مثواه الأخير، فيجلس أهل الميت على الأرض حفاة حاسري الرؤوس يستقبلون المعزين لمدة ثلاثة أيام، أما النساء من أسرة المتوفى فيجلسن على بساط يفرش على الأرض قرب المكان الذي مات فيه فقيدهن، لتقبل العزاء من المعارف والأهل، وتمتد أيام العزاء عندهم من ثلاثة إلى عشرة أيام، وفي أثناء العزاء والحداد يمتنع أهل الميت وأقرباؤه عن كل مباهج الحياة وأفراحها لفترة قد تطول في بعض الأحيان لتبلغ الشهرين[٢١٩].

اقترنت فترة الحداد وحدها ولمدة ثلاثة أيام باعتقاد سائد عندهم بأن الروح لا تغادر الدنيا في الأيام الثلاثة التالية على الوفاة، ولذلك تقام لها الصلوات والتراتيل المتصلة خلال هذه الفترة[٢٢٠]، وفي صباح اليوم الرابع تفارق الروح العالم الدنيوي إلى العالم الأخروي، مما يتطلب إعداد حفلة دينية إما في المنزل أو في أحد دور العبادة مساء اليوم الثالث وقبيل شروق شمس اليوم الرابع، ويحضر الحفلة أهل المتوفى وأقاربه وأصدقاؤه، وفيها توزع الصدقات على المحتاجين، ويخصص اليوم الرابع كله للصوم، وذلك لمساعدة الروح في عبور الصراط[٢٢١].

قد يكون للطقوس السابقة أصول شرعية بسيطة لا غلو فيها ولا تشدد ولا تعقيد، أثر فيها تعاقب الزمان، وما طرأ على الدين من تحريف، إما بفعل الغفلة والنسيان، وإما لبعدها عن منابع الدين الحقيقية، ولكن الشيء الذي لا أصل له في الدين، ولا يتفق أبداً مع السنة الموروثة من آدم عليه السلام هو إيداع جثث الموتى برج الصمت بدلاً عن دفنها في التراب.

ويعترف الابتساق صراحة بأن عرض جثث الموتى على الطيور ليس من الدين في شيء، أما الدخمات أو أبراج الصمت فهي الأعمال البغيضة، وإزالتها من الوجود أمر يوجبه الله تعالى، ففي الفصل الثالث من الفنديداد سأل زرادشت ربه قائلاً:

«يا خالق العالم المادي، يا قدوس، ما هو ثالث مكان تحزن فيه الأرض أكثر من

غيره، فأجاب ربه: هو المكان الذي أنشأ فيه الناس أكبر عدد من الدخمات، حيث يضعون جثث الموتى»[٢٢٢].

وعندما سأله في مقابل ذلك عن الرجل الذي يفرح الأرض أعظم فرح، ويسرها فعله، أجابه قائلاً:

«هو الرجل الذي يهدم أكبر عدد من الدخمات التي تعرض جثث الناس للطيور، ويسويها بالأرض»[٢٢٣].

ويقول عن الرجل الذي يفعل الشيء نفسه في موضع آخر:

«إن من يهدم هذه الدخمات ولو كانت في حجم جسده يكون هدمه لها كفارة له عن خطاياه أياً كان نوعها فكرية أو قولية أو فعلية»[٢٢٤].

وفي الفصل السابع من الفنديداد ينظر الابتساق إلى الدخمات بوصفها المقر الذي تسعد فيه الشياطين لمخالفتها سنة آدم وشريعته الباقية في أبنائه إلى يوم القيامة فيقول مخاطباً زرادشت:

«فوق هذه الدخمات التي يقيمونها على الأرض ويضعون فيها الأموات تملأ الشياطين وتفرقها مثلكم، فكما تطبخون أنتم طعامكم وتأكلون اللحم مشوياً، هكذا تفعل الشياطين، إن الرائحة التي تشمها الشياطين في الدخمات هي رائحة طعامهم، هناك يا زرادشت الحكيم يكون سرورهم وسعادتهم»[٢٢٥].

وتأتي شهادة المؤرخ اليوناني هيرودوتس بعد شهادة ما بقي من الأصول الصحيحة للابتساق لتؤكد أن عرض الجثث على الطيور الجارحة ليس من الدين الزرادشتي في شيء، بل هو مما كان يمارسه جهاراً مجوس مادا وفارس، قبل زرادشت وبعده[٢٢٦] وإلى الوقت الذي أرخ فيه يهرودوتس لهم.

فقد جرت عادة المجوس على عرض موتاهم للكلاب البرية والطيور الجارحة ولا يدفنونهم أبداً، لنفس اعتقاد الزرادشتيين في مراحل انحطاط دينهم، وهو عدم تدنيس الأرض الطاهرة مصدر قوت الأحياء قاطبة، أما الفرس فقد كانوا على حد تعبيره «يطلون أجساد موتاهم بالشمع ثم يدفنونهم في التراب»[٢٢٧].

ويشهد التاريخ والمؤرخون[٢٢٨] بأن دفن الأموات كان شائعاً بين الزرادشتيين إبان حكم الأسرة الأليخانية، وهي الأسرة التي حكمت الفرس بالدين الزرادشتي وفي

زمانها انتشر شرقاً وغرباً، فقد كانوا يدفنون موتاهم في قبور تظهر فوق سطح الأرض، ومنهم من كان يتقرب إلى الله ببناء المقابر.

وعندما توفي قورش الكبير شيد له قبر حجري جميل يرتفع إلى ما يقرب من خمسة وثلاثين قدماً فوق قاعدة مدرجة، والقاعدة نفسها من الحجر، وفوقها غرفة صغيرة حوائطها سميكة بدون نوافذ وسقفها حجري، ولا زال القبر قائماً إلى يومنا هذا في منطقة (بازارجادة) بإيران.

واتباعاً لنفس السنة في الدفن أقيم (لدارا) في مكان غير بعيد عن برسيوليس في إيران قبر منحوت في واجهة صخرية من الجبل وقد بني مدخله ليمثل لمن يراه واجهة قصر لا قبر، وأقيمت عند المدخل أربعة أعمدة دقيقة حول باب شامخ، ومن فوق الباب شخوص عليها صورة الملك، ولا زال العامة من الإيرانيين يسمون هذا القبر بنقش رستم.

وما سبق ذكره كاف للدلالة ليس فقط على اهتمام الزرادشتيين بمقابر موتاهم، بل دال أيضاً على اهتمام من يرى في الدفن فريضة وسنة واجبة الاتباع ولها من القدسية والاحترام ما لغيرها من الفرائض والسنن، وهم في ذلك لا يقلون عن غيرهم من بني آدم، كتابيين وغير كتابيين.

الفصل الرابع
تدهور الدين الزرادشتي

ترقى الدين الزرادشتي بمعناه البسيط والعملي بأهالي مادا وفارس قبل ميلاد المسيح بخمسمائة عام إلى مستوى أخلاقي رفيع قل نظيره في حياة الشعوب المعاصرة لهم، وجعل من طهارة النفس من الأدران المادية والروحية، ومن حب العمل والصدق والحقيقة محور حركة الحياة.

والمعنى نفسه ارتبط من كل جهة أخرى باتجاه واضح للعمران والتحضر والتمدن والرقي وزيادة النسل، والتمتع بمباهج الحياة باعتدال وبلا إفراط وفيما يحله الدين ويبيحه، أما الرهبنة والاعتزال والعزلة عن الحياة فمن الأمور المضادة للمعنى والمناهضة له على السواء.

وقد اجتمعت كلمة المؤرخين المعاصرين على أن الحياة في فارس القديمة تأثرت بالدين تأثراً كبيراً، حتى طغت سمة الدين على الحياة كلها، فغدا الدين المظهر الروحي للأمة بأجمعها، وعزو كل ما وصل إليه الفرس من تحضر ومثالية وقوة وأخلاق إلى ما في دينهم من بساطة وعملية وروحية.

لم يذكر القرآن الكريم فيمن ذكر من رسل الله وأنبيائه زرادشت، ولكنه قص علينا قصة (ذو القرنين)[٢٢٩]، أو قورش الكبير أحد أولئك الذين صاغهم الإسلام الزرادشتي، وسبكهم في قالب لا يختلف عن القوالب التي سبكها الإسلام المحمدي في رسالته الخاتمة للناس جميعاً، فقال تعالى حاكياً ومؤرخاً للمعنى الإسلامي الكامن في قلبه والمحرك له في حياته:

﴿ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً، إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً، فأتبع سبباً، حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوماً قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً، قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً، وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً، ثم أتبع سبباً، حتى إذا

بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً، كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً، ثم أتبع سبباً، حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً، قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً، قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً ءاتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال ءاتوني أفرغ عليه قطراً، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً، قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً﴾(٢٣٠).

فذو القرنين – كما يصفه القرآن – كان نموذجاً ربانياً فريداً، فهو الحاكم العادل، والفاتح الرحيم، وفتوحاته المتتالية شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً لم تكن سعياً وراء المال، ولا هو مدفوع لها بحب القهر والتسلط، وإنما لبسط العدل والرحمة والأخذ بأيدي المقهورين والمستذلين والمستضعفين، وعامل أهل البلاد التي فتحها الله على يديه بكل ما فيه من كرم وأخلاق، فلم تكن معاملته بما يشق على عباد الله أو يسوءهم، فكانت كلها عطفاً ورحمة وسماحة.

ظهر ذو القرنين بكل هذه المعاني الإسلامية الرفيعة في عالم لا يكاد يخلو من نور النبوءة المشرق، وتسيطر عليه قوى الظلم والقسوة والهمجية، فشقت طريقها في سهولة ويسر إلى قلوب الناس، فنالت إعجابهم وتقديرهم بسموها وإنسانيتها، وبطهرها ونقائها، وجاءت أقوال العارفين والعلماء في البلاد التي خضعت لحكمه، والمعاصرين له شهادة حية وناطقة بعظمة الدين الذي سبكه في هذا القالب الرباني المثالي.

يقول عنه هيرودوتش ملخصاً ما سمعه عنه:

«كان قورش ملكاً كريماً، جواداً سمحاً للغاية، لم يكن حريصاً على جمع المال، بل كان حرصه كله على الكرم والعطاء والجود يبذل العدل للمظلومين، ويحب كل ما فيه خير البشر»(٢٣١).

ويقول عنه زينوفن:

«كان ملكاً عاقلاً رحيماً، اجتمعت فيه مع نبل الملوك فضائل الحكماء، همته

تفوق عظمته، وجوده يغلب جلالته، خدمة الإنسانية شعاره. وبذل العدل للمظلومين ديدنه، حل فيه محل الكبر والعجب والتواضع والسماحة[٢٣٢].

ومن شهادات القدماء صاغ المعاصرون لنا من المؤرخين خصائص ذي القرنين في عبارات تعد شرحاً وتفصيلاً لما أجمله القرآن من فضائله ومحاسنه، فها هو المؤرخ البريطاني غرندي C.B. Grahdy يقول عنه:

كانت شخصية قورش شخصية فذة، غير عادية في عصره، فإنه أحدث في قلوب الشعوب المعاصرة له أثراً يحير الألباب، وقد ألف زينوفن تلميذ سقراط سوانح حياته بعد موته بمائة وخمسين سنة، وإنا لنرى في جميع الروايات فضائله الإنسانية بارزة، وسواء اهتممنا بها أم لم نهتم، إلا أنه لا مناص لنا من الاعتراف بأن حبل سياسة ملكه كان مرتبطاً بمحاسنه الأخلاقية وفضائله الإنسانية، وإذا لاحظنا سلوكه مع ما كان عليه ملوك آشور وبابل من السيرة نجده يتلألأ تلألؤا عظيماً رائعاً.

كانت رعيته تهابه، ولكن لا تخشى قسوته، إذ حكومته لم تعرف عقاب القتل والسلب والنهب، لم يكن المذنبون يجلدون، ولا تصدر الأوامر بالمذابح العامة، ولا تخاف الشعوب الجلاء عن الأوطان، بل كان الأمن والسلام يشمل الجميع، وترفرف الطمأنينة والرفاهية على الكل.

لقد محا قورش مظالم الملوك الآشوريين والبابليين، ورجعت الشعوب المنفية إلى أوطانها، بذل العدل لسائر الشعوب، ومنح الحرية التامة لجميع الأديان والمذاهب، وحل محل الخوف العام السابق، عدل عام، وسماحة كريمة، ومساواة تامة[٢٣٣].

عاش قورش بعد فتوحاته المظفرة نحو عشر سنوات وتوفي عام ٥٢٩ ق.م، فخلفه ابنه قمبيز، ولم يستمر قمبيز طويلاً في الحكم فتوفي بالشام، ولم يبق من أبناء قورش أحد، فتوج دارايوش ابن عمه حاكماً على البلاد، فوصل بالدين إلى الذروة العليا في المجد، وبلغ في عهده درجة من الذيوع والانتشار لم يشهدها من قبل، وامتدت البلاد التي فتحها من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، مكوناً أكبر إمبراطورية توحيدية يشهدها العالم القديم.

ولم ينسب دارا ما فتحه الله على يديه من بلاد، وما لاقاه من نجاح هائل في

توطيد الأمن والسلام إلى قوته الذاتية. وإنما نسبه ككل عبد مؤمن إلى فضل الله وتوفيقه، فيقول عن النصر الكبير الذي أحرزه في بداية ملكه على المجوس الذين انتزعوا السلطة من البلاد من قمبيز في أثناء غيابه:

يقول دارايوش: لقد كان عرش البلاد الذي انتزعه كئوماتاي المجوسي من قمبيز لأسرتنا منذ القدم، لقد انتزع كئوماتاي المجوسي فارس وميديا والولايات الأخرى من قمبيز واستأثر بها وصار ملكاً.

يقول الملك دارا: لم يظهر أحد من فارس وميديا أو من أسرتنا يسترد عرش المملكة من كئوماتاي المجوسي، كان الناس يخشونه لأنه قتل كثيراً من الناس، لم يكن أحد يجترئ أن يقول شيئاً عن كئوماتاي المجوسي حتى أتيت أنا، وطلبت العون من الله فأعانني، وفي اليوم العاشر من شهر باكياديش قتلت أنا بمعاونة عدة أشخاص كئوماتاي المجوسي وعدداً كبيراً من أعوانه وانتزعت الملك منه، وصرت ملكاً بفضل الله.

لقد وهبني الله الملك، يقول الملك دارايوش، لقد استرجعت الحكم الذي ضاع من يد أسرتنا، وبلغت به مكانته التي كان عليها، وأصلحت للشعب ما هدمه كئوماتاي من معابد، وأعدنا للطوائف ما سلبه كئوماتاي من بضائع وخدم ومساكن ومنحت الاستقرار للفرس والميديين ولأهالي سائر الولايات، فعادوا إلى أماكنهم السابقة، وهكذا أعدت كل ما انتزع إلى حالته السابقة، لقد فعلت كل هذا بفضل الله[٢٣٤].

وفي مدينة اصطخر كتب دارا على لوحة صخرية معدداً نعم الله فقال:

عظيم هو الله الذي خلق هذه الأرض، والذي خلق تلك السماء، والذي خلق الإنسان، والذي خلق السعادة، الذي جعل دارا ملكاً واحداً على كثير من الناس، وشارعاً واحداً لكثير من الناس.

يقول دارا الملك: بفضل الله هذه هي الأقطار التي أملكها وراء فارس والتي أسيطر عليها، والتي أدت الجزية، والتي امتثلت أمري وأطاعت شريعتي: مديا، سوسيانا، برتيا، هريفا (هراة) بكتريا (بلخ)، سغد، خوارزم، الهند، بابل، أشور، بلاد العرب، مصر، أرمينيا، كبنقيا، إسبرتا.

يقول دارا الملك: حينما رأى الله الأرض ائتمنني عليها، جعلني ملكاً، بحمد الله قد أحكمت تدبيرها، نفذ فيها أمري، إذا حدثتك نفسك كم الأرضون التي سيطر عليها الملك دارا فانظر إلى هذه الصورة، إنهم يحملون عرشي فعسى أن تعرفهم.

يقول دارا: كل ما عملت فإنما عملت بفضل الله، الله أيدني حتى أكملت العمل، لعل الله يحفظني وبيتي وهذه الأرض، لذلك أدعو الله لعل الله يمنحني ذلك، أيها الإنسان إن الله لك فلا تظن به سوءاً، لا تحد عن الطريق السوي ولا تقترف إثماً[٢٣٥].

وعندما ينسب دارا كل ما أحرزه من نجاح وانتصارات إلى الله وحده، إنما يفعل ذلك لإيمانه العميق بأن الأمور كلها تتم بمشيئة الله، ومن الله القوي القادر يستمد العون والتوفيق، وهو في كل أقواله لم يخرج عما انتهى إليه ابن عمه قورش عندما نسب كل ما فعله لله رب العالمين فقال مقراً ومعترفاً بفضل الله عليه، ﴿**هذا رحمة من ربي**﴾[٢٣٦].

بقيت معاني التوحيد ومفاهيمه تسيطر ببساطتها على كافة أوجه الحياة الفارسية لفترة من الزمن بعد دارا وخلفائه، ورويداً رويداً بدأت تطفو على سطح الحياة مظاهر البعد عن الدين، مصحوبة ببروز الأفكار المجوسية القديمة، ودخولها في صراع من أجل السيطرة على الحياة الدينية مع الأفكار الزرادشتية الأصيلة، فاختلط في المجتمع الحق بالباطل.

وكان بإمكان الدين الزرادشتي مواجهة أي انحراف، والقضاء على كل خروج، وإفحام كل فكر دخيل واعتقاد فاسد، لو توفر له من القوة الذاتية ما يجعله بمنأى عن عنصري الزمان والمكان، ولكن شاء الله أن تكون الرسالة بطبيعتها مرهونة بالزمان والمكان ومقصورة على أناس بعينهم. فمن الصعب وقوفها وهي بهذه الخصائص أمام موجات التحلل والخروج، والغفلة والنسيان، والتفسير والتأويل، وفوق ذلك كله مجابهة العقائد والأفكار المخالفة لها، فتسلل إليها الضعف، واجتاحتها عوامل التحريف والتبديل، حتى فقد الدين في النهاية بساطته واستحال بتعاقب الأجيال إلى دين هو خليط من كافة الاعتقادات السائدة في المجتمع.

ومن المتعذر علينا تحديد بداية فعلية لتدهور الدين ولاختلاطه بمجوسية مادا

وفارس القديمة وغيرها من الوثنيات، ولكننا نرجح أن البداية لتدهوره قد انطلقت رأساً من تصور الناس لذات الله. فما إن أهلَّ القرن الثالث قبل الميلاد على وجه التقريب، أي ما يزيد على قرنين ونصف من وفاة زرادشت، حتى ظهرت فكرة ناضجة ومتكاملة، هي بلاشك من عمل العقلاء والعارفين، وهي فكرة تعظيم النار كرمز لله في الحياة الدنيا.

أما كيف تنبع فكرة وثنية كهذه من رسالة سماوية قائمة على التنزيه المطلق لله، فإن الإجابة المباشرة تنبثق رأساً من التنزيه المطلق لله عن شوائب المادة، وعن ضروب التشابه والتماثل والنقص والتغيير والانقسام، وذلك لأن مثل هذا التصور لله ينقل الذات الإلهية بلا أدنى شك من المستوى المادي المحسوس إلى المستوى العرفاني الذي يحيل تصور الله ذاتاً ووجوداً إلى فكرة معرفية بحتة.

ولما كان هذا النوع من المعرفة لا يطيقه كل الناس، ولا يتفق مع طباعهم، ولا يقدرون على إدراكه لوقوف عقولهم عند المحسوس، واكتفائهم بالفرعيات من الأمور دون تدقيق، فلم يجد علماء الدين والعارفون بداً أمام قوة التنزيه إلا الإشارة إلى ذاته المتعالية برمز هو أقرب إليه في التجريد، وأشبه به من حيث الأحوال والصفات، وأدنى إلى المحسوس، حتى تقوى عقول الناس على تحمله، وتصوره وإدراكه، ويكون مألوفاً لطباعهم، فانتهى تفكيرهم إلى النار.

واختيارهم للنار وحدها دون غيرها من مظاهر الطبيعة التي تشبه صفاتها وأحوالها صفات الله وأحواله، انبثق من سوء فهمهم لصفة النور الإلهي، إذ هم قد نظروا لطبيعة الله على أنها نورية خالصة، ثم منها جعلوا لنورية الله تعالى تجليات مختلفة في الوجود كله ابتداء من توهج الشمس ولمعان القمر الفضي من السماء، حتى النار في مواقد الأرض، بل حتى الطاقة النورية والنارية المودعة في الخلق كافة، فكلها مظهر لنوره ورمز له(٢٣٧).

وفي شعلة النار واشتعالها كمظهر للنورية الإلهية، رمز يشير – كما يزعمون – إلى كل المعاني الإلهية، ففيها السمو والرفعة والجلال والعظمة والطهر والنقاء، وهي فوق ذلك مصدر الإشراق والضياء والصفاء، وهي دائبة النشاط غير قابلة للفساد أو التحلل أو التغيير، لأجل ذلك اختيرت كرمز لله في عليائه وفي تجرده وتنزهه، ونظروا إليها نظرة التعظيم والتقديس والإجلال.

فمقصودهم إذن ينحصر في المعنى الذي ترمز إليه شعلة النار، لا النار نفسها، والتعظيم والقداسة للمعنى نفسه لا للنار، لاقتناعهم التام بأن الرمز إذا أخذ بظاهره تناقض مع الإيمان ومع التوحيد، ولكن تصور الله في رمز ظاهر يدرك بالحواس أياً كان نوعه فيه نزول بالله إلى المستوى المادي المحسوس، والاعتقاد المبني على معنى الرمز، والمعرفة المبنية على المحسوس هي في كل الأحوال عقيدة ومعرفة يغيب فيها الرمز، ويتوارى مدلوله، وينظر فيها لله مجسماً كبقية الماديات، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وهذا ما حدث بالفعل، فكل من لم يقف على فلسفة الرمز في الزرادشتية يتهمهم بالتجسيم، وينسب إليهم عبادة النار إذ هي المقصودة بالتعظيم، والحقيقة أن النار لم تعبد، ولم يتخذها أحد منهم إلهاً من دون الله وهم عندما يقفون أمامها في هدوء وسكينة ووقار، وحين تتجه إليها أبصارهم فلا تنحرف عنها كل صلاة ودعاء، لا يعتقدون فيها كإله معبود من دون الله، وإنما كرمز لله الذي لا تدركه الأبصار، ولا تحيط بكنهه العقول، وعلى هذا فالزرادشتي كان يفرق عن اعتقاد جازم بين الله تعالى وبين رمزه.

فالدين إذن لم يسمح على الإطلاق بعبادة النار، وتوالت عليه شتى أنواع التحريف، وجرد في حقب متتالية من معاني ومفاهيم التوحيد فيه، ولكن المؤمنين به تجنبوا دوماً الوثنية باعتقاداتها الباطلة وآلهتها المنحوتة، وقد اعترف لهم بهذه الفضيلة المؤرخ البريطاني مالكوم في كتابه تاريخ إيران فقال:

لم يجنح الفرس وحدهم من بين الشعوب القديمة إلى الوثنية من أي نوع في أي دور من أدوار تاريخهم[٢٣٨].

والمسلمون الذين بذلوا جهدهم للوقوف على عقائد المجوس، وتأملوا طويلاً في رمزيات دينهم وأدبياته، أو أولئك الذين اختلطوا بهم وجادلوهم فيما بين أيديهم من علم وكتاب، أدركوا هذه الحقيقة وأثبتوها في مؤلفاتهم، فقال عنهم القزويني على سبيل المثال:

(*) موضع جميع علامات الوقف قبل حرفي الشرط (إنْ، لَوْ).

... فأمر في جميع مملكة كتشاسف بناء بيوت النار، وجعل النار قبلة لا إلهاً، وبقيت تلك الملة إلى مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢٣٩].

ومن المسلمين من سمى النار «كعبة زرادشت» ومنهم من قال: «إن النار قبلته كما أن الكعبة قبلة المسلمين» والفردوسي على وجه أخص يعاتب ويلوم، بل ويرجو من كل مسلم ألا يتحدث عن الزرادشتيين بوصفهم عباد النار، لأنهم على حد تعبيره لا يعبدون إلا الله الواحد القهار[٢٤٠].

وعلى أي حال فالشكل الذي ظهر به الدين الزرادشتي وكان موضع اعتقاد وممارسة تعبدية ودراسة، هو غير ما كان عليه أيام زرادشت وخلفائه، فَقَدْ فَقَدَ بتعاقب الأجيال، وبعوامل الغفلة والنسيان بساطته وعظمته، وانقلب إلى شكل معقد من الأفكار والطقوس المنافية للإيمان ومظاهره ولم يبق منه في النهاية إلا ما يشير إلى معنى التوحيد، يتلألأ من بعيد ضمن ركام هائل من المعاني الإلهية الزائفة؛ وتحجب نوره الوضاء غيوم الجهل، فتحول بينه وبين النفاذ في القلوب.

ومهما يكن من أمر فقد هيمنت البقية الباقية من الدين على حركة الحياة في المجتمع الفارسي إلى أن غزا الإسكندر المقدوني فارس (٣٣١ – ٣٣٠ ق.م). فأزال سلطان الدولة السياسي، ومن ثم أزال السلطة الدينية والتشريعية والروحية في البلاد، ولكن الكارثة التي تهون دونها سائر الكوارث التي ألمت بهم هي إحراق الإسكندر لمدينة إصطخر عاصمة البلاد الروحية، وضياع أغلب التراث الزرادشتي.

كانت مكتبات مدينة اصطخر ودور العبادة تضم أنفس ما دبجته أقلام العلماء ورجال الدين في شتى فروع المعرفة، وكانت محط أنظار طلاب العلم يفدون إليها من كل حدب وصوب، وعندما تغلب الإسكندر على الجيوش الفارسية ودخل عاصمة البلاد مكللاً بالفوز والظفر، أمر جنوده وهو في حالة سكر شديد بإحراق المدينة بمن فيها، فاحترقت برمتها ولم يستطع أحد أن ينقذ منها شيئاً، فضاع بسبب غطرسة الإسكندر واستهتاره البالغ بالتراث الإنساني أغلب المكتبات ودور العلم، بما فيها أسفار الابتساق بشروحه وتعليقاته وتفسيراته[٢٤١].

تعمد الإسكندر القضاء على – عاصمة البلاد – وعلى التراث الديني الذي يراه أساساً للدولة الفارسية، وسر تميز الفرس وامتيازهم على غيرهم، ليقطع أي صلة

لهم بالله، ولتحل عقيدة اليونان الوثنية محل عقيدة التوحيد، وتلك بلاشك خسارة يتضاءل بجانبها خسارتهم في ضياع استقلالهم السياسي ووقوعهم في أسر الغير، ولذلك سمى الفرس، الإسكندر بالشيطان اللعين، ومبعوث الشيطان والعدو الأول[٢٤٢]، ووصف بكل شنيعة وقبيحة.

ويتحدث تنسر فقيه المجوسية أيام الساسانيين عما آل إليه حال الدين بعد ضياع التراث وإحراق الكتاب المقدس فيقول:

«... وإذا نظرت في أمر الدين واستنكرت ما ليس له وجه فيه علمت أن الإسكندر أحرق من كتابنا اثني عشر ألف جلدة بقرة بإصطخر وبقى ثلث هذا القدر محفوظاً في الصدور، وجملة هذا القدر المحفوظ قصص وأحاديث أيضاً قد ذهبت من ذاكرة الناس بسبب فساد أهل الزمان وذهاب الملك والحرص على البدع والتمويهات والغرور بحيث لم يبق منها حرف من الصدق، فلا مندوحة من أن يكون الرأي الصائب هو إحياء الدين[٢٤٣].

وبعد فترة من الظلام الدامس تحت الحكم الوثني لليونانيين استعاد الفرس استقلالهم السياسي، ولكنهم لم يستردوا أبداً أصول كتابهم، فدخل الدين في حقبة قاتمة من تاريخه، وفي طور جديد من الضعف والتدهور، اختلط بالعقائد المجوسية والوثنية، وطغت عليه حتى فقد صلته بأصوله التوحيدية، وتقدر تلك الفترة من تاريخ الدين بخمسمائة وست وخمسين عاماً، أي إلى تأسيس الدول الساسانية على يد أردشير (نحو سنة ٢٢٦م)، والذي قام بآخر محاولة لإحيائه وإعادته إلى أصوله الأولى، وفرضه من جديد منهجاً للناس وللدولة.

أول ما اتجه إليه أردشير بعد أمر الدولة هو الدين الذي استأثر باهتمامه كله، ولتحقيق هذه الغاية جمع أهل العلم ورجال الدين لمناقشة أفضل السبل المؤدية لإحياء التعاليم الزرادشتية، ومن بين الألوف الذين شهدوا ذلك الاجتماع الكبير اختير سبعة من خيرة الموابذة يرأسهم الموبذ الأكبر (أرو بيران)، فاستطاعوا بعد تنقيب شامل في أنحاء البلاد أن يجمعوا عن طريق الرواية الشفهية ما بقى محفوظاً في الصدور بعد غارة الإسكندر، كما تمكنوا من جهة أخرى من العثور على أجزاء متناثرة من الابتساق، فنسقوا ما أطمأنوا إلى صحته وصدقه في كتاب أجيز بإجماع العلماء.

ولما كانت لغة الكتاب في شكله الجديد هي نفسها لغة الابتساق القديمة، وهي لغة غامضة وليست متداولة في زمانهم، ويصعب فهمها على العامة، وتحتاج إلى شرح وتفسير، فقد عهد إلى المختصين من رجال الدين والأدب بوضع التعليقات والشروح اللازمة لها باللغة البهلوية الشائعة في ذلك الزمان، لتسهل على الجميع قراءة الكتاب، والتفقه فيه، والعمل بما فيه من تكاليف، ثم وزع الكتاب في ترجمته الجديدة على الناس بوصفه النص الأقرب إلى الكتاب الذي أوحى به الله تعالى لزرادشت.

صاحب جمع الابتساق وإحياء الدين إصلاحات واسعة شملت كل مناحي الحياة، وتركز جلها حول تطهير عقيدة التوحيد من شوائب الشرك والمجوسية والوثنية، فأزيلت الأصنام والتماثيل، وبنيت المعابد على النسق الزرادشتي، أوقدت فيها النار كرمز لا يخمد لله تعالى.

ومثل هذه الإصلاحات الشاملة تحتاج بلاشك إلى من يؤمن بها أولاً ليبذلوا غاية ما في وسعهم لتطبيقها في الواقع المعاش، ووجد أردشير ضالته في الموابذة، فمنحهم سلطات واسعة، وأشركهم في إدارة الدولة مشاركة فعلية، وعينهم في كل مكان لإدارة البلاد والحكم بين الناس وفقاً للشريعة الزرادشتية، أما من عين لإدارة البلاد من غيرهم فقد كان يكثر من إرسال المنشورات إليهم حاثاً إياهم على المحافظة على الدين والعدل بين الناس(٢٤٤).

انعكس اهتمام أردشير بالدين الزرادشتي، وأهميته للدولة وللناس في الوصية أو العهد الذي تركه لابنه سابور ولخلفائه من بعده، حيث قال لهم فيه:

«اعلموا أن الملك والدين توأمان لاقوام لأحدهما إلا بصاحبه، لأن الدين أس الملك وعماده، ثم صار الملك بعد حارس الدين، فلابد للملك من أس، ولابد للدين من حارسه، لأن ما لا حارس له ضائع، وما لا أس له مهدوم، وإن رأس ما أخاف عليكم مبادرة السفلة إياكم إلى دراسة الدين وتلاوته والتفقيه فيه، فتحملكم الثقة بقوة السلطان على التهاون به فتحدث رياسات مستسرات في من قد وترتم وجفوتم، وحرمتم وأخفتم من سفلة الناس والرعية وحشو العامة.

واعلموا أنه لن يجتمع رئيس في الدين مسر ورئيس في الملك معلن في مملكة

واحدة قط إلا انتزع الرئيس في الدين ما في يد الرئيس في الملك، لأن الدين أس، والملك عماده وصاحب الأس أولى بجميع البنيان من صاحب العماد[٢٤٥].

وفي واقع الأمر فالدين الذي أعيد للحياة، وفرضت تعاليمه على الناس، وطبقت شريعته عليهم، لا صلة له بدين زرادشت الحقيقي وإنما هو الدين الزرادشتي المحرف، الذي فقد الكثير من خصوصياته، ومسخت حقيقته، وشوهت مظهريات الإيمان فيه، ولا نكون مغالين إذا ما قلنا إن الدين الزرادشتي في شكله الجديد هو خليط غريب ومتنافر يجمع بين مجوسية مادا وفارس القديمة، ووثنية اليونان، والزرادشتية المحرفة، وكل من يلقي نظرة فاحصة على الابتساق المتداول اليوم بين أيدي المجوس في إيران والهند يجابه بهذا الجمع الفريد في كل صفحة من صفحاته.

أطلق العرب قبل الإسلام على هذا الجمع الفريد للدين الزرادشتي اسم المجوسية[٢٤٦]، وكلمة مجوس معربة من الكلمة الفارسية مجوش Magush (بالكاف الفارسية)، بمعنى عبادة النار، وسموا أتباعه مجوساً أي عباد النار، إذ الغالب على الدين اعتقادات أهالي مادا وفارس قبل مبعث زرادشت المعروف بالاسم نفسه.

ويكفي في دقة إطلاق العرب اسم المجوس على الزرادشتيين القول بأن الدين كله قد طغت عليه روح الدين المجوسي بدءاً من تعظيم النار ومروراً بقواعد التطهير المعقدة، وانتهاء باللباس المميز لرجال الدين منهم، واختصاصهم باسم موغوبت Magupet الشائع عند العرب بلفظ الموبذ، بمعنى عظيم المجوس، أو حافظ دين المجوس.

وكلمة مجوس أو مجوسية لم ترد في الغالب الأعم ضمن نصوص الابتساق الحديثة، والمقاطع التي وردت فيها الكلمة قد تكون مدسوسة أو محرفة، منها ما صرح به سفر اليسنا من أن لعنة الله ستنزل على رأس كل من يسيء معاملة المجوس Magi[٢٤٧].

وهناك مقطع غريب في الفنديداد قال فيه الإله لزرادشت «الرجل الذي له زوجة خير من ذاك الذي يعيش كمجوسي Magus[٢٤٨]، أي يعيش عفيفاً وزاهداً في النساء[٢٤٩].

وسواء صح ورود مثل هذه المقاطع أو لم يصح فالثابت تاريخياً أن كلمة

مجوس كانت تستعمل دائماً في شأن معارضي دين زرادشت، وتطلق بصفة أخص على اتباع الدين الوثني لأهالي مادا وفارس قبل مبعث زرادشت وعلى طوائف من الفرس بعد مبعثه، أي على أولئك الذي ظلوا على دين آبائهم ولم يؤمنوا بما جاءهم به نبيهم، ولكن إدخال النار في صلب العقيدة التوحيدية واتخاذها قبلة للعبادة، والاهتمام بها إلى درجة التعظيم جعل أغلب مظاهر الدين الزرادشتي لا تختلف كثيراً عن مظاهر المجوسية القديمة.

وعلى أي حال فالفرق بين الديانتين المجوسية والزرادشتية عند كل من الفرس ومن أرخ لهم من اليونانيين، لم يكن بنفس الغموض الذي عرفه به العرب، فمثلاً يتحدث هيرودوتس عنهما كعقيدتين منفصلتين تمام الانفصال فيقول مؤرخاً لثورة المجوس ضد حكم الأسرة الأليخانية:

«وبينما كان قمبيز بن قورش يعمل في مصر كان أخوان من المجوس قد انتهزا الفرصة ليخرجا عن طاعته»[٢٥٠].

وكتب أحد قواد قمبيز إليه قائلاً:

«أظن أنك عرفت ما جرى فإن المجوس قد خرجوا عليك»[٢٥١] ويعقب هيرودوتس على ذلك بقوله «فأحزنه جداً خروج المجوس»[٢٥٢].

ودارايوس خليفة قمبيز – كما نعلم – ذكر في مفتتح حكمه زعيم الثورة ضدهم بانتمائه الصريح إلى المجوسية، في إشارة عميقة الدلالة لمخالفتهم لهم في الدين والعقيدة، فأرخ هيرودوتس لما فعله من استرداد ملك آبائه قائلاً:

فاستل الفرس سيوفهم وقتلوا المجوس الذين التقوا بهم ولولا أن الليل أوقف القتال لم يفلت منهم أحد، واحتفل الفرس بذلك اليوم احتفالاً عظيماً، وهذا العيد هو من أعظم أعيادهم يسمى (ماغوفونيا) أي قتل المجوس، ففي ذلك اليوم لا يسمح للمجوس أن يظهروا بين الناس بل يبقون في منازلهم[٢٥٣].

ومهما يكن من أمر فالدين الزرادشتي الذي دخل جزيرة العرب[٢٥٤] وانتشر في مناطق متفرقة منها ودانت به بعض القبائل، هو الدين الذي غلبت عليه مظاهر المجوسية فسماه العرب بظاهر ما يسوده من اعتقادات وطقوس، فورد في كتب التاريخ أن سادات بني تميم مثل زرارة بن عدس وابنه حاجب، والأقرع بن حابس

وأبو سود جد وكيع بن حسان قد اعتنقوا المجوسية، إذ سرت إليهم من الفرس ومن المجوس معاً.

وكان في اليمن مجوس، وجل هؤلاء ممن تخلف عن الجيش الفارسي الذي أرسله كسرى لطرد الحبشة من اليمن، فهم وأبناؤهم كانوا على المجوسية، وأما مجوس عمان وبقية أنحاء الجزيرة العربية الجنوبية فقد كانوا أصلاً من الفرس المقيمين بقصد التجارة فاستولوا على الأرض، وعند ظهور الإسلام لم يكن لهم نفوذ سياسي، وبدخول البلاد في دين الله دفع بعض أولئك المجوس الجزية، ودخل الباقون في الإسلام.

وأما مجوس البحرين فقد كانوا أكثر عدداً وأكبر نفوذاً من إخوانهم في عمان لقربهم من الأمبراطورية الساسانية، ولغلبة الفرس على السواحل المقابلة لها، وقد عثر المنقبون على قبور عديدة تعود إليهم، وعلى آثار معابدهم، وكان على هجر حين وصلت دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إليها رجل من الفرس اسمه سيبخت مرزبان، وقد أسلم وأسلم معه جماعة من قومه، ودفع الجزية من فضل البقاء منهم على دينه.

والغريب في الأمر أن المؤرخين لم يسمعوا بدخول أحد من ملوك وأمراء الحيرة الذين عينهم الفرس على العرب في المجوسية، مع اتصالهم الوثيق بهم، ووجود الفرس في أرضهم وفي عاصمتهم، على حين نجد بعضاً منهم قد دخل في النصرانية، مما ينبئ بتحول الدين في نهاية المطاف إلى دين قومي خاص بهم وحدهم كجنس آرى، وهو ما عليه الآن المجوس في إيران والهند.

أنزل الله تعالى رسالته الخاتمة للعرب ولغير العرب ليخبر بالصدق عن حقيقة الدين الزرادشتي وما آل إليه، فقال تعالى:

﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة، إن الله على كل شيء شهيد﴾(٢٥٥).

فالمجوس كما هو واضح من سياق الآية. ومن ترتيب أصناف الناس فيها، لم يطلق عليهم اسم المشركين، وإنما عدّوا صنفاً من أهل الأديان الكتابية مغايراً للشرك

وأهله، مثلهم في ذلك مثل الذين آمنوا واليهود والصابئة والنصارى، فهم على أقل تقدير يقفون مع أهل الكتاب على قدم المساواة.

وعلى هذا فالقرآن يعترف للمجوس بالأصل الكتابي لدينهم، تماماً كما يعترف ويصدق بأصول دين اليهود والنصارى والصابئة، وينكر عليهم ما أحدثوه في دينهم وكتابهم من تحريف وتبديل وتغيير. فهو إذن ينكر على الزرادشتيين ذلك الدين الذي اختلط بغيره حتى تحول في النهاية إلى مجوسية لا صلة لها بالوحي الإلهي.

ومن المعروف بداهة أن خروج أهل الكتاب عن هدي ربهم، وبعدهم عن منهج الله القويم، وشيوع الوثنيات في عقيدتهم، وغلبة مظاهر الشرك في حياتهم، كل ذلك لم يسلبهم ما وصفهم به الله تعالى كأهل كتاب، ولم يجردهم عما تميزوا به على من لا كتاب لهم من المشركين وغيرهم.

وعلى هدي اعتراف وتصديق القرآن سار المصطفى صلى الله عليه وسلم، فوضع المجوس مع أهل الكتاب في منزلة واحدة، وحكم عليهم بما يحكم به على أهل الكتاب، فروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء»[٢٥٦].

ومن حيث هم أهل كتاب كاليهود والنصارى فقد عامل الرسول صلى الله عليه وسلم مجوس الجزيرة العربية من العرب والفرس معاملة أهل الكتاب، أي في أخذ الجزية عنهم، فقال صلى الله عليه وسلم: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب غير آكلي ذبائحهم ولا ناكحي نسائهم»[٢٥٧].

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مجوس هجر فيما يرويه ابن سعد في طبقاته وأبو يوسف في الخراج كتاباً مضمونه نفس مضمون الحديث السابق وفحواه:

أن يعرض عليهم الإسلام، فإن أبوا أخذت منهم الجزية، وإلا تنكح نساؤهم ولا تؤكل ذبائحهم[٢٥٨].

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المنذر بن ساوى الأخنس أمير البحرين رسالة حملها إليه العلاء الحضرمي نصها:

«من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلام الله عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله غيره، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

فإني أذكرك الله عز وجل فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً، وإني قد شفعتك في قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية(٢٥٩).

سار أبو بكر الصديق رضي الله عنه بسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم. ومن بعده سار الفاروق عمر، فمما يروى أن كاتباً لجريربن معاوية وكل على مناذر ودست وميسان، وهي بلاد بنواحي خوزستان بين فارس وواسط والبصرة، فذكر لعمر بن الخطاب أن قوماً يعبدون النيران ليسوا يهوداً ولا نصارى ولا أهل كتاب، فقال عمر ما أدري ما أصنع بهؤلاء، فقام عبدالرحمن بن عوف فقال: أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب» فكتب عمر بن الخطاب أن خذ الجزية ممن قبلك من المجوس، فإن رسول الله أخذ الجزية من أهل هجر(٢٦٠).

وفي خلافة علي – رضي الله عنه – أشكل أمر المجوس على البعض من الصحابة، كيف تؤخذ الجزية من المجوس وهم ليسوا بأهل كتاب، فارتفع الإشكال إلى علي بن أبي طالب فقال لهم:

أنا أعلم الناس بهم، كانوا أهل كتاب يقرؤونه وعلم يدرسونه فنزع من صدورهم، سأحدثكم بحديث ترضيانه جميعاً عن المجوس، إن المجوس كانوا أمة لهم كتاب يقرؤونه وإن ملكاً(٢٦١) لهم شرب حتى سكر فأخذ بيد أخته فأخرجها من القرية، واتبعه رهط فوقع عليها وهم ينظرون إليه، فلما أفاق من سكره قالت له أخته: أنت صنعت كذا وكذا، وفلان وفلان ينظرون إليك، فقال، ما علمت بذلك، فقالت: أنت مقتول إلا أن تطيعني، قال: فأني أطيعك؟ قالت: فاجعل هذا ديناً، وقل: هذا دين آدم،

وقال حواء من آدم وادع الناس إليه، واعرضهم على السيف فمن تبعك فدعه، ومن أبى فاقتله، ففعل، فلم يتبعه أحد وقتلهم يؤمئذ حتى الليل، فقالت إن الناس قد أجتروا على السيف، فأوقد لهم ناراً ثم اعرضهم عليها، ففعل فهاب الناس النار فتابعوه، وقاتلوا الذين خالفوه. فأصبحوا وقد أسرى على كتابهم فرفع من بين أظهرهم، وذهب العلم الذي في صدورهم، فهم أهل كتاب، وقد أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر الجزية منهم(٢٦٢).

أجمع الفقهاء(٢٦٣) بعد الصحابة رضوان الله عليهم على قبول الجزية من المجوس، واختلفوا في تحريم نسائهم وأكل ذبائحهم فمنهم من أحلها كالشافعي، ومنهم من حرمها، ولكن الإجماع يكاد ينعقد على جواز التحليل، فقد حكى ابن عبدالبر عن سعيد بن المسيب أنه لم يكن يرى بذبيحة المجوس بأساً إذا أمره مسلم بذبحها، وروى ابن أبي شيبة عن عطاء وطاووس بن عمرو بن دينار أنهم لم يكونوا يرون بأساً في التسري بالمجوسية، وأفتى الشيخ محمد رشيد رضا من بعد هؤلاء بجواز أكل ذبائح المجوس والزواج بنسائهم، مستنداً في فتواه تلك إلى أنهم أهل كتاب وليسوا مشركين(٢٦٤).

أما الاعتراف بهم كأهل كتاب مثل اليهود والنصارى، فقد مال البعض من الفقهاء(٢٦٥) إلى القول بأنهم ليسوا من أهل الكتاب. وإنما أخذت الجزية من اليهود والنصارى بالقرآن وأخذت من المجوس بالسنة لأن في قوله صلى الله عليه وسلم «سنوا بهم سنة أهل الكتاب» ما يشعر بأنهم ليس كأهل الكتاب، ولذلك عاملهم الرسول صلى الله عليه وسلم معاملة أهل الكتاب في أخذ الجزية فقط.

ويذهب بعض الفقهاء كالإمام أبي حنيفة وأبي ثور(٢٦٦) وابن حزم إلى أن المجوس من أهل الكتاب، ونورد فيما يلي رأى الإمام ابن حزم على سبيل المثال قال:

«... وأما المجوس فإنهم معترفون مقرون بأن كتابهم الذي فيه دينهم أحرقه الإسكندر، إذ قتل دارا بن دارا، وأنه ذهب منه الثلثان وأكثر، وأنه لم يبق منه إلا أقل من الثلث، وأن الشرائع كانت فيما ذهب، فإذا كانت هذه صفة دينهم فقد بطل القول بالجملة لذهاب جمهوره وأن الله لا يكلف أحداً ما لا يتكفل بحفظه حتى يبلغ إليه، وكل كتاب دون فيه الكذب فهو باطل موضوع ليس من عند الله، فظهر فساد دين المجوس كالذي ظهر من فساد دين اليهود والنصارى سواء بسواء(٢٦٧).

وفي الحالتين فهناك اعتراف من الفقهاء بسمو منزلة المجوس وعلو مقامهم إذا ما قورنوا بالشرك والمشركين، ومن أجل ذلك صنفوا مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ونظروا إليهم كأهل كتاب وللمجوسية كدين سماوي من الزاوية نفسها التي ينظر بها الإسلام إلى أصحاب هاتين الديانتين، لا على أساس نسبة الابتساق ككتاب موحى به من عند الله، فإنه أضعف من نسبة التوراة والإنجيل، مع الفارق الكبير بين الكتب الثلاثة.

الفصل الخامس
الزرادشتية المعاصرة

ترتب على دخول الإسلام في إيران في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه زوال النظام السياسي الذي كان يستمد شرعية وجوده في الأصل من الدين الزرادشتي، الشيء الذي أفقد الدين مزية التطبيق لأحكامه وتعاليمه في حياة الناس وتلى ذلك بالضرورة بداية النهاية للدين كقوة حية في المجتمع.

ولاشك أن الفرس قد سمعوا بالمبادئ التي دعا إليها الإسلام ورسول الإسلام قبل مجيء الإسلام إلى ديارهم، وعندما عرفوها ولمسوها عن قرب رأوا أنها تتلاقى مع دينهم في أمور جوهرية أبرزها التنزيه المطلق لله تعالى، والحث على العمل الصالح وحب الخير، والنهي عن الفساد في الأرض. وفوق ذلك فهناك حياة أخرى يثاب فيها الأخيار، ويعاقب الأشرار فأيقنوا أنه ينبع من ذات المنبع الذي صدر عنه دينهم. فلم يظهروا له جفاءً وإعراضاً كالذي أظهروه للوثنية اليونانية التي حملها معه الإسكندر المقدوني، وفي نفس الوقت لم تقابلهم صعوبة في تقبل عقيدة الإسلام، ولا مشقة في حمل أنفسهم على مقتضى تعاليمه، فأقبلوا على الدخول فيه إقبالاً واسعاً.

اختارت طائفة من الفرس الاحتفاظ بعقيدتهم الزرادشتية، متمسكة بتراث الآباء والأجداد، وبما بقي لهم من دين نبيهم، فلم يتعرض لهم الإسلام، بل احترم عباداتهم وعاداتهم وتقاليدهم ومعابدهم (بيوت النيران). مكتفياً منهم بالجزية المفروضة على الكتابيين، فأقاموا شعائر دينهم وطقوسه بمنتهى الحرية. وفي أمان تام واطمئنان في كل المناطق التي وضع المسلمون أيديهم عليها.

عاشت تلك الطائفة مع الأقليات الدينية في سماحة الإسلام منذ الفتح، ثم أخذت اعتباراً من القرن الثالث الهجري في التناقص شيئاً فشيئاً إلى أن بلغ عددهم في وقتنا الحاضر حسب إحصائية عام ١٩٦٠[٢٦٨] ما يقرب من أحد عشر ألفاً. يقيم أغلبهم في مجتمع صغير للغاية في طرف الصحراء في مدينتي يزد وكرمان، وتتواجد أقلية ضئيلة في طهران وبقية المدن الأخرى.

اشتهر مجوس إيران وسط المسلمين باسم (الكفار)، أما هم فيطلقون على أنفسهم الزرادشتيين تارة، وأتباع أو أصحاب الدين الحق (Bah-dinan)[٢٦٩] تارة أخرى، ولكن لغلبة اسم الكفار عليهم في مجتمع إسلامي يكاد يغمرهم جعلهم يحتفظون بالاسم الأخير لأنفسهم ولا يظهرونه أمام الغير.

وبجانب ذلك يطلق مجوس إيران على أنفسهم – مثلهم في ذلك مثل مجوس الهند – اسم البارسيس Parsis أو البارسي Parsi[٢٧٠]، نسبة إلى فارس إحدى مقاطعات إيران فيجا القديمة، ويعزى هذا الانتساب إلى تحول الدين الزرادشتي إلى نزعة قومية فيها يتمثل المجد الغابر لدين أقام أكبر امبراطورية شهدها العالم القديم.

ولا يزال مجوس إيران يحتفظون بأغلب مظاهر الزرادشتية المحرفة، ويتبعون بصرامة شديدة كل ضوابط الدين وتكاليفه، كحرصهم البالغ على قواعد الطهارة القديمة بكل ما فيها من قسوة، والائتزار بالحزام المقدس، واتباعهم ما كان عليه آباؤهم في طقوس الزواج وتقديس النار في المعابد والمنازل، بوصفها رمز الإله الكبير المتعالي وقبلة العبادة، وعرض جثث موتاهم في أبراج الصمت على النسور والطيور الجارحة.

والمظهر الوحيد الذي بقى من معاني الإسلام في دينهم، وبه نالوا إعجاب الناس، وأصبح من مميزاتهم وخصائصهم التي شهد لهم بها كل من تعامل معهم وخبرهم عن قرب هو متانة أخلاقهم، وحرصهم على فضائل الأعمال، وحبهم للصدق والحقيقة، ونفورهم الطبيعي من كل رذيلة وكل شر.

والمسلمون الذين يختلطون بهم الآن في يزد وكرمان ويتعاملون معهم ليل نهار على أتم استعداد للاستعانة بهم في الحقول والحدائق وأعمال الزراعة والتجارة وسائر الأعمار، ليس فقط لمهارتهم وجدهم في العمل، وإنما لأمانتهم وصدقهم في التعامل مع الغير ولو كانوا على غير دينهم، وهناك مثل شائع وسط المسلمين نصه:

«.. ليأكل الواحد منكم في بيت اليهودي وسيأكل طعاماً جيداً، ولكن عليه بالمبيت في منزل الزرادشتي، فهناك سينام ملء جفنيه، وهو على ثقة واطمئنان من أن يد مضيفه لن تمتد إليه ولا إلى ممتلكاته»[٢٧١].

هذا كله عن الذين آثروا البقاء في إيران بعد الفتح الإسلامي، أما أولئك الذين لم

يقبلوا الدين الجديد ولا الفاتحين الجدد وأرادوا المحافظة على دين الآباء والأجداد، فقد فضلوا النزوح بعيداً عن الوطن وبأعداد ضخمة، حيث أستقر بهم المقام نهائياً في المنطقة الغربية من الهند.

غير أن تلك الأعداد الضخمة بدأت في التناقص منذ بداية القرن العشرين بنسبة تصل إلى ٧٪ كل عشر سنوات، وفي الإحصاء الذي أجري في الهند عام ١٩٧١[٢٧٢] بلغ مجموعهم كأكبر تجمع للمجوس في العالم حوالي ٢٦٦،٩١ نسمة، يقيم منهم في بومباي وحدها قرابة ٦٤،٠٠٠ وفي المدن الباكستانية نحو ٥،٢٠٠ والباقي موزع في ولايات الهند وحول العالم في تجمعات صغيرة للغاية.

خص الزرادشتيون أنفسهم كمواطنين في الهند باسم البارسيين في إشارة صريحة إلى انحدارهم من فارس، وإلى اعتبار أنفسهم كأجانب في الهند دفعهم إلى مغادرة وطنهم الأصلي خوفهم من الذوبان في المجتمع الإسلامي الجديد، ولاتزال الأغلبية المتعلمة منهم تحتفظ باللغة البهلوية القديمة، كلغة للأجداد، وبها يقرأ الابتساق في الصلوات وفي معابد النار، وفي الاحتفالات الدينية، وهم متمسكون كإخوانهم في إيران بتعاليم دينهم، لكونها – كما يرون – أفضل تعاليم أنزلت على البشر ويفتخرون بها أكثر من افتخارهم بجنسهم الآري وأصلهم الفارسي.

بيد أن هذه التعاليم – كما أسلفنا القول – هي ما ورثوه من العصر الساساني بعد إعادة إحياء الدين، أي هي الزرادشتية المحرفة (المجوسية). ومن أبرز ما يتقيد به مجوس الهند في وقتنا الحاضر من تعاليم وتلوح من خلاله بين الفينة والأخرى ما اتبعه زرادشت وخلفاؤه ما يلي:

١ – مراسم الدخول في الدين:

عندما بلغ زرادشت سن الخامسة عشر من عمره خضع – كما عرفنا – لطقوس ذات مسحة وثنية دخل بموجبها في دين آبائه وأجداده، واتبع الزرادشتيون في مراحل ليست بعيدة عن عصر نبيهم الطقوس نفسها بعد تجريدها من المظاهر الوثنية، وأضيف إليها من رموز الدين ما جعلها واجباً يخضع له زرادشتي بمجرد بلوغه سن التكليف.

ويطلق مجلس الهند على إجراءات إدخال الطفل المولود لأبوين زرادشتيين في

حظيرة الدين اسم ناوقوت Naojote، والكلمة مركبة من مقطعين Nao بمعنى جديد، وJote بمعنى يؤدي ما عليه من عبادة[٢٧٣]، أو قيامه بما يجب عليه من تكاليف.

وعلى الرغم من الإضافات الكثيرة والمثقلة بالمعاني الوثنية التي أدخلت على إجراءات الدخول في الدين، فقد بقي المعنى الزرادشتي بارزاً ويشكل فيها نقطة محورية لا تخطئها العين، وهو أن السن التي يحتفل الناس فيها ببلوغ الطفل، هي السن التي يصبح عندها مخاطباً بالتكاليف الشرعية، ومسؤولاً عن كل ما يصدر عنه من أعمال، ولا خلاص له في الدنيا والآخرة إلا باتباع ما شرعه الله تعالى، ولا أحد سوى نفسه قادرٌ على خلاص نفسه.

أبقى المجوس على المعنى الكامن في الشعيرة كما هو، ولكنهم تساهلوا كثيراً في أمر السن التي يجري فيها الاحتفال بالبلوغ، فالحد الأدنى للدخول رسمياً في الدين للذكر والأنثى عند مجوس الهند هو السابعة، وعند مجوس إيران هو سن التاسعة، باستثناء الظروف التي يصعب تجنبها. عندها يجوز تأجيل الاحتفال حتى سن الخامسة عشرة على ألا تتجاوزها مهما كانت الظروف، لأن الابتساق قد نص عليها كحد أقصى، وفي هذا يقول أحد فقهاء المجوسية في الهند:

«يجب على كل فرد ذكراً كان أم أنثى من اتباع الدين الحق بمجرد بلوغه سن الخامسة عشرة وجوباً إلزامياً ارتداء الحزام المقدس (الزنار)، لأن الحزام المقدس في شريعة زرادشت هو قيد العبودية لله تعالى، فيجب أن يطوق الخاصرة، ويحافظ عليه ويصان كرمز على طاعة الله»[٢٧٤].

يخضع الطفل قبل بدء مراسم الدخول في الدين إلى طقوس تطهير خاصة تعرف بطقوس الاستحمام المقدس، فيقوم رجل الدين المعين لهذه المهمة بغسل جسم الطفل أو الطفلة بماء له صفة القداسة، عقب ذلك مباشرة يتلفظ الطفل بشهادة الدين الزرادشتي، أو بتعبير مجوس الهند يصرح بإيمانه قائلاً:

أعظم المجد والثناء للدين الحق والكامل القويم، الدين الذي أنزله الله عن طريق رسوله زرادشت وخصنا به، دين الله الذي بلغه للناس زرادشت[٢٧٥].

بعد شهادة الإيمان يجلس الغلام على الأرض في مواجهة الكاهن وفي أول خطوة في مراسم التقليد يضع الكاهن القميص سودرا Sudreh بين يدي الغلام، ثم

يتلو الكاهن والغلام وبقية الحضور دعاء التوبة، بانتهائه ينهضان معاً، ويقفان أمام النار لتلاوة دعاء الاعتراف بالله إلهاً ورباً وبزرادشت رسولاً ونبياً، وفي ختام التلاوة يساعد الكاهن الغلام على ارتداء القميص.

يشترط في القميص أن يكون من القطن الخالص، وأبيض اللون وطاهراً ونظيفاً، وذا كمين وله جيب صغير، هو عندهم جيب الأعمال الصالحة، والذي يجب على الغلام النظر إليه دائماً؛ وفي كل مرة ينظر فيها إليه يسأل نفسه، هل هو مملوء بأعمال صالحة أم لا، ولا يجوز للغلام في أثناء تقليد القميص ارتداء أي شيء تحته حتى يمكن للقميص ملامسة بشرته[٢٧٦].

أما في حالة تقليد الحزام المقدس (الزنار) Kusti فيتجه الغلام صوب المشرق إذا كان الوقت صباحاً، وصوب المغرب إذا كان الوقت مساء، وفي أثناء قيام الكاهن بربط الحزام في وسطه، يردد الغلام بصوت مرتفع دعاء Nirangii Kusti Baastan[٢٧٧]، وفيه تمجيد وتسبيح لله وشجب ولعنة للشيطان وأعماله.

والحزام كما تنص التقاليد يصنع من الصوف الأبيض وبعدد محدد من الشعر، ويجهز ويعد من قبل لفه في وسط الغلام بفترة قصيرة، وعدد اللفات ثلاث تشير في مجموعها إلى قواعد الإيمان الثلاث، الفكر الطيب، والقول الطيب، والعمل الطيب، وفي اللفة الثانية من هذه اللفات يعقد عقدتين من الأمام، وفي اللفة الثالثة، وهي آخر اللفات يعقد عقدتين من الخلف، وكل عقدة من هذه العقدات إشارة إلى أمر من الأمور، فالعقدة الأولى تشير إلى الشهادة بوجود إله واحد، والثانية تشير إلى الشهادة بدين زرادشت، والثالثة إلى الاعتراف برسالة زرادشت، والرابعة على قواعد الإيمان وهي الاعتقاد والقول والعمل[٢٧٨].

بانتهاء إجراءات التقليد يتلو الكاهن والغلام معاً وبصوت واحد دعاء نصه:

«أتوسل إليك يا ربي أن تمدَّ يد المساعدة لشخصي الضعيف، فأنا عبدك التقي الورع، وأنا زرادشتي أتقرب إليك بالعبادة ليل نهار، ولا آلو جهداً في نصرة دينك، دين زرادشت، الدين الذي أؤمن به.

أحمدك ربي وأثني عليك لما وهبت لي من فكر طيب وقول طيب وعمل طيب،

وأحمدك ربي وأثني على دينك، الدين الذي اجتث من الوجود الخلاف والمنازعات بين الناس، الدين الذي جاء حاثاً على التآخي في الله، وصلة الرحم والأقارب.

ولايزال دين زرادشت بفضل الله حياً في نفوسنا، وهو الذي سيحيا ويزدهر في المستقبل، وإذا ما قورن بغيره من الأديان فهو أعظم دين وأسمى دين وأكمل دين، وأفضل دين، لأنه الدين الذي أنزله الله على زرادشت.

وأنا بحمد الله أؤمن إيماناً لا يتطرق إليه أدنى شك بأن كل شيء في الوجود هو من عند الله، وسيعلي الله من شأن دينه، ويرفعه فوق سائر الأديان.

المجد والخلود لدين الله، دين زرادشت»[٢٧٩].

النار ومعابدها:

لا تتميز معابد النار في إيران والهند على غيرها من المباني، فمعبد النار في إيران قد تعين له غرفة في المسكن، وقد يخصص مبنى لا يختلف عن غيره من المباني توضع فيه النار المقدسة، أما في الهند فعادة ما يشيد مبنى بأكمله للعبادة، ولحفظ النار مشتعلة فيه، وللصلوات في الأعياد والاحتفالات الدينية.

وعلى غير ما هو شائع فليس كل نار عند المجوس لها صفة القداسة، بل لابد من تطهير النار وتنقيتها حتى تصل أقصى درجة من الصفاء، ولهم في تطهيرها طقوس وإجراءات طويلة ومعقدة نكتفي بعرض مبسط لأهم ما فيها.

لا تبلغ النار حد القداسة، ولا تكون موضع التبجيل والاحترام والتعظيم، إلا إذا استخلصت من ستة عشر ناراً، وعلى النحو التالي:

تضرم النار في مجموعة من خشب الصندل إلى أن تتوهج وتلتهب وتصل إلى علو كاف يمكّن رجل الدين من إشعال قطعة صغيرة من خشب الصندل موضوعة على ملعقة بها ثقوب تتيح للنار المتوهجة التسرب من خلالها لقطع الخشب فتشعلها، وحينما تشتعل تلك القطع الصغيرة ناراً، يستخرج منها نار أخرى، ومن الثانية أيضاً. وبطرق أكثر تعقيداً من الأولى، وبمصاحبة أدعية وتلاوة فقرات من الابتساق، وهكذا يظل يكرر هذه العملية ستة عشر مرة، وفي المرة الأخيرة تبلغ حد الطهارة المطلوب، ومن ثم ينظر إليها نظرة القداسة فتتخذ رمزاً لله تعالى، وقبلة للعبادة.

وإجراءات تطهير النار مقصورة فقط على الطبقة العالية من رجال الدين،

وقيود اشتعالها، وتنقيتها كثيرة من أهمها تغطية الأنوف والأفواه، وألا ينفخ فيها بالفم، وألا يتنفس الواحد منهم إلا ببطء شديد لئلا يتسرب النفس إليها فيلوثها، وألا تزاد اضطراماً واشتعالاً بمروحة أو بأي شيء آخر، وتترك لتشتعل من تلقاء نفسها.

بعد ذلك توضع النار في وسط غرفة مخصوصة داخل المعبد في وعاء قاعدته حجرية مربعة. وتظل توقد يوماً بعد يوم بقطع من خشب الصندل بواسطة رجال ملازمين لها طوال الوقت، وإذا أطفئت النار لسبب أو لآخر، فتوقد من نار معبد آخر لا من النار الاعتيادية، وعلى الرجال الملازمين لها في أثناء تأدية واجباتهم في غرفتها تغطية وجوههم بقطعة قماش بيضاء لتحول بين أنفاسهم وبين النار، ويجب عليهم ألا يسعلوا أو يعطسوا وهم في حضرتها[٢٨٠].

وأغلب المجوس يترددون على معبد النار أربع مرات في الشهر، والمتدينون منهم يترددون عليه يومياً وفي أي وقت شاؤوا[٢٨١]، والصلاة في العادة على انفراد وتتم على النحو التالي:

على المصلي قبل وقوفه أمام النار غسل الأجزاء الظاهرة من جسمه كالوجه واليدين والرجلين، يتلو عقب ذلك دعاء الكوستي المنصوص عليه في الابتساق، ثم يخلع نعليه ويتقدم حافياً عبر البهو الداخلي للمعبد إلى أن يصل عتبة غرفة النار، هنا يسلم لملازم النار ما يجود به من مال أو خشب صندل، ثم يدخل الغرفة ويقف أمام النار مركزاً بصره عليها ويشرع في أداء صلاته وتلاوة ما يشاء من أدعية، بعد انتهاء الصلاة يتراجع ببطء خارج الغرفة إلى حيث ترك حذاءه، فيتسلم من ملازم النار قدراً ضئيلاً من رماد نار المعبد يمسح به جفونه وجبينه ثم يعود من حيث أتى..[٢٨٢].

وعلى غير المألوف عند أهل الكتاب فالمجوس لا يطلقون على معابدهم أسماء خاصة، وإنما يسمونها باسم النار المشتعلة فيها، فمثلاً أقدم معبد للنار هو الموجود حالياً في بومباي يعرف باسم (آتش بهرام Atash Behram)[٢٨٣]. وآتش بهرام هي أكثر النيران قداسة وذلك لبلوغها المرتبة الأولى في النقاء والصفاء، وسائر المعابد تأخذ شعلة النار منها.

يلي معبد آتش بهرام معابد أخرى أقل قداسة من الأول يطلقون عليها اسم

Atash Adran، وآتش أدران نار مستخرجة من أربع شعل، وآخرها في القداسة آتش داد قاه Atash Dad Guh[٢٨٤]، وهي بيوت نار عادية بإمكان المجوسي العادي إيقاد نارها، ولا يحتاج إلى رسوم تطهير معقدة، أما الآخريات وخاصة الأولى فلا يشعلها إلا من حاز على درجة الدستور (الموبذ).

الصلاة:

للمجوس – كما قلنا – خمس صلوات واجبة على كل بالغ تمنطق بالحزام المقدس، يعتبرونها جزءاً من عبادتهم لله وسلاحاً فعالاً في حربهم ضد الشيطان وأعوانه، وقسمت الصلوات الخمس على ساعات اليوم فصلاة الساعة الأولى عند شروق الشمس إذ يستقبل بها يوماً جديداً من أيام حياته والساعة الثانية للصلاة في منتصف النهار، والساعة الثالثة للصلاة قبل غروب الشمس، ثم يتوقف لبرهة قصيرة من الزمان والشمس في طريقها للاختفاء ليصلي صلاة الساعة الرابعة، أما صلاة الساعة الخامسة فهي صلاة الفجر[٢٨٥].

يهيئ المجوسي نفسه قبل الشروع في الصلاة بغسل وجهه ويديه ورجليه ثم يحل الحزام المقدس (الزنار) من وسطه، ويقف أمام النار منتصب القامة، وبكل خشوع وخضوع ووقار وطمأنينة يكون نظره مركزاً على شعلة النار، ثم يتلو صلاته بصوت خفيض، وحينما تقترب الصلاة من نهايتها يعيد الحزام المقدس إلى وسطه، وبه تختم الصلاة[٢٨٦].

وفي وفي كل مرة يصلي فيها عليه فك وعقد الحزام كجزء لا يتجزأ من الصلاة، ولا تكتمل الصلاة إلا به، بل يعده مجوس إيران ركناً لا تصح الصلاة إلا به، ولذلك يسمون الصلاة كلها بـ «تجديد الحزام المقدس»[٢٨٧].

وما يقال في الصلاة أدعية مأثورة مستقاة من الابتساق يتوجه بها الواحد منهم لله تعالى قاضي الحاجات ومجيب الدعوات، وقد تتضمن في بعض الأحيان لعنة الشيطان وأعوانه، ولا يسمح لأي منهم بالتهاون فيها أو تركها وإلا عد مرتكباً خطيئة وذنباً كبيراً.

والصلاة في الأصل عندهم فردية، ولكنهم في فترات متباعدة أو في المناسبات

والأعياد قد يؤدونها في جماعة، فيرتدون لها الملابس البيضاء النظيفة، ويربطون الحزام المقدس، ثم يتوجهون في جماعة إما إلى معبد النار، أو إلى الشمس الغاربة.

فمن وقت إلى آخر تشهد شوارع بومباي مجموعة من البارسيين بملابسهم البيضاء المميزة، وأحزمتهم مشدودة في وسطهم، وهم يشقون طريقهم نحو الشاطئ المطل على بحر العرب، وعند حافة الماء يقف هؤلاء الرجال أمام الشمس وهي على وشك الغروب، فيغطسون أيديهم ثم يرفعونها إلى جباههم، ثم يمدون أيديهم إلى أحزمتهم فيفكونها، ثم يرفعون أيديهم إلى جباههم.

وبعد أن يعيدوا التمنطق بالأحزمة مرة أخرى يرفعون أيديهم نحو الشمس الغاربة، ويخرجون من بين شفاههم ترتيلاً خفيفاً يقول:

«أجهر بالثناء على الفكرة التي أجيد التفكير فيها، والكلمة التي أجيد قولها، والعمل الذي أجيد عمله»[٢٨٨].

برج الصمت:

يتبع المجوس في إيران والهند عند الوفاة نفس الطقوس التي انتهى إليها أسلافهم، فهم لا يحرقون جثث موتاهم، ولا يدفنونها في التراب، ولا يلقونها في الماء، وإنما يعرضونها للشمس وللطيور اللاحمة في الدخمة أو برج الصمت Tower of Silence.

والدخمة – كما عرفنا – بناء عالي الجدران، مستدير الشكل. بلا سقف، أرضيته حجرية أو مبلطة، وفي الأرضية ثلاثة صفوف من الحجارة، أعلاها مخصص لجثث الرجال، والأوسط للنساء، وأدناها للأطفال. وبينهما ممر خصص لحملة الجنازة، وفي وسط الدخمة بئر جافة.

وعند الوفاة يغسل الميت بماء بئر طاهر لا يقربه غير المجوس، ثم يكفن بملابس نظيفة، ويلف الحزام المقدس الخاص به في وسطه وفوق الكفن، بعد ذلك تأتي طائفة معينة خصّيصى لهذا العمل لحمله إلى مثواه الأخير، فيتبعهم أهل المتوفى وأقاربه إلى المعبد أولاً حيث يضعونه قرب النار للصلاة عليه، ثم يحملونه بعد الصلاة مباشرة إلى الدخمة، وفي خارج الدخمة يلقى عليه الجميع نظرة الوداع الأخيرة.

ولا يصحب حملة الجثمان إلى داخل البرج إلا أقرب الأقربين للمتوفى، وهناك يوضع في القسم المخصص له، ثم يتولى حملة الجثمان انتزاع الكفن بمقص أو يمزق بالأيدي، حتى يصبح عارياً تماماً، فيتركونه على هذه الحالة ويغادرون المكان(٢٨٩).

وما إن يترك الجميع الجثة على هذه الحالة حتى تهب عليها النسور من مواقعها الثابتة فوق السور، فتبدأ على الفور في انتزاع اللحم عن الجسم، وفي خلال نصف ساعة لا يبقى من الجثة إلا العظام معرضة لحرارة الشمس، وبمضي الأيام تجف العظام، فيأتي نفس الرجال ليلقونها في البئر الجافة، لاعتقادهم أن الجثة بعد تعريتها من اللحم قد فقدت قدرتها على التدنيس(٢٩٠).

ومن المشكلات التي واجهت المجوس في موتاهم وخاصة عندما يكون المجتمع المجوسي صغيراً للغاية، مشكلة عدم توفر أعداد ضخمة من الطيور الجارحة لندرة الموتى بينهم، وفي بعض الحالات واجهوا احتجاجاً صارخاً من الأغلبية التي يعيشون بينها، وقد عالج المشرع هذه المشكلة بجواز دفن الجثة في تابوت حجري مبطن بالرصاص ليمنع تسرب مخلفات الجثة للتراب فيلوثه(٢٩١).

أما الأفراد القلائل الذين يعيشون في مدن الغرب الأوربي فتوصلوا إلى فكرة حرق الجثث عن طريق الأفران الكهربائية، بحيث يمكن حرق الجثة في درجة حرارة عالية دون تعرضها للهب لئلا تتلوث النار(٢٩٢).

نظرة عامة على مجوس الهند:

حافظ البارسيون في الهند إلى حد كبير على الزرادشتية المحرفة كما تلقوها من الآباء والأجداد، كما حافظوا من جهة أخرى على أغلب مظاهر الدين، ومن أبرزها دراسة الابتساق، وتقديس الأرض واعتبار العمل من أفضل ما يتقرب به المؤمن لله تعالى، إلى غير ذلك مما هو مشهور اليوم عنهم.

أما من ناحية المظهر الخارجي فقد اشتهروا بالنظافة وارتداء الملابس البيضاء المعطرة، وبالأجسام الجميلة، وعدم كشف الرأس خارج البيت أو داخله حتى يخيل لمن يراهم لأول مرة أنهم مسلمون، لتفردهم بنفس المظاهر المميزة للمسلمين عن غيرهم.

الثانية: بدأ عددهم في التناقص المستمر، ويشاركهم في ذلك أيضاً مجوس

إيران، وذلك للتزايد المرعب في الزواج المختلط بينهم وبين غيرهم من طوائف الهند، ويحظى زواج البارسي من الغير بقدر محدود من الاعتراف، ويقبل أطفاله في الدين والمجتمع قبولاً مشروطاً، أما الزوجة فينظر إليها في كل الأحوال على أنها غريبة وأجنبية، ولا تحظى بأدنى درجة من القبول، وأما البارسية التي تتزوج من خارج الجماعة فتطرد هي وأطفالها بلا رحمة، وتعد في نظرهم في حكم المفقودة(٢٩٣).

وأياً ما كان الأمر فقد اشتهر مجوس الهند بخصائص ومميزات أكسبتهم منزلة رفيعة في المجتمع الهندي، فهم مثلاً لا يحفلون كثيراً بالزهد والانقطاع التام للعبادة، أو الانعزال عن الحياة العامة، بل عرفوا منذ نزوحهم من فارس بحب العمل وبالمواقف الإيجابية المتفاعلة مع حركة الحياة، وبالحيوية والنشاط وروح المبادرة.

وهم بشهادة قادة المجتمع الهندي من أكثر الناس مشاركة ومساهمة في جميع مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ويكفي للتدليل على تفاعلهم مع أوجه الحياة المختلفة، وتأثرهم بها وتأثيرهم فيها ذكر نموذجين لإسهاماتهم الفعالة في مجالين من أهم المجالات وهما السياسة والاقتصاد.

ففي المجال السياسي اشتهر منهم (داواهار ناوروجي Dauahar Naorgii)(٢٩٤)، الذي شهد له جواهر لال نهرو في أول اجتماع للهيئة التشريعية العليا عام ١٨٨٥ بأنه «أول من استخدم كلمة Swaraj (الحكم الذاتي) في الهند» وترأس داواهار الهيئة التشريعية العليا في ثلاث دورات في عام ١٨٨٦ و١٨٩٣ و١٩٠٦.

كافح داوهار من أجل استقلال الهند، وناضل في سبيل ذلك نضالاً دؤوباً، واقتحم ميادين العمل السياسي بلا تردد، ولتحقيق أهداف بلاده العليا قرر الدخول في مجلس العموم البريطاني، فتقدم للانتخابات العامة من حزب الأحرار، ونجح بالفعل كأول هندي ينتخب في البرلمان البريطاني (١٨٩٢ – ١٨٩٥)، ومن داخل البرلمان الإنجليزي نادى بالحكم الذاتي وبالاستقلال.

والبرلمان الإنجليزي دخله ثلاثة نواب من الهند، انتخبوا مباشرة من قبل الناخب البريطاني، والثلاثة كانوا من طائفة البارسيين، وشيء كهذا لم يحدث من قبل في تاريخ البرلمان الإنجليزي ولا في تاريخ الهند السياسي.

أما في مجال الاقتصاد، فهم أول من طور الصناعة في الهند على الطراز الغربي الحديث، ومن هؤلاء الذين يرجع إليهم ذلك الفضل (دينشاو بتيت Dinshaw Petit)[٢٩٥] الذي يعد بجدارة أبرز شخصية في مجال الصناعة والتجارة وأعمال البر والإحسان، وإليه يرجع الفضل في تحويل مدينة بومباي إلى مانشيستر الشرق في صناعة الغزل والنسيج.

والمجوس عموماً ومع قلة عددهم من أصحاب الثراء الواسع، وتتركز في أيديهم أغلب الأعمال التجارية، فيملكون أكبر الفنادق والمخازن والمصانع، ويكادون يحتكرون شؤون المال حيثما كانوا، ومن أشهر أغنيائهم وأغنياء الهند كلها (تاتا) وأسرته، فهو صاحب سلسلة من المصانع تبدأ بالطيران، وتنتهي بالصابون والحلويات.

وهم فوق ذلك من أكثر طوائف الهند تعليماً وثقافة، ولا يوجد في الهند كلها من يضارعهم في الاستفادة من الثقافة الغربية والحضارة الأوربية، فبلغوا بذلك مرتبة من الرقي العقلي والتطور الفكري أدت بهم لأن يكونوا الرواد السابقين في تكوين الهند الحديثة[٢٩٦].

وأهم من ذلك كله فقد اشتهروا بالأخلاق السامية وبالآداب السلوكية الرفيعة، والذوق العالي، وبضوابط حركية دقيقة في الحياة جعلتهم أكثر الناس إقبالاً على الخير، وأبعدهم عن الشر، وهي التي تقف اليوم شاهداً على الأثر الكبير للبقية الباقية من معنى التوحيد في الدين الزرادشتي، وعلى الدور الفريد لهذا المعنى في صياغة الفرد صياغة ربانية يسمو بها على سائر البشر.

الهوامش

(١) أجمعت المصادر التي أرخت للزرادشتية على أن والد زرادشت هو بوراشاسب Pourushasp وأمه Dughdo وبالفارسية الحديثة دغدوية، اما لقب الأسرة فهو إسبتيما Spitema. ويقرأ في المصادر الإسلامية أسقيمان بمعنى أبيض، من الأصل الفارسي القديم سبيت والحديث شبيذ، ولا يزال الاسم يستعمل بنفس معناه القديم في الفارسية الحالية.

في هذا انظر: Zoroster - Jackson p.16. والملل والنحل ج(١) الشهرستاني، ص٢٣٦، وتجديد التأريخ، عمر فروخ، ص٤٨.

(٢) ويسألونك عن ذي القرنين، أبو الكلام آزاد، ص١٤٤.

(٣) كمثال لذلك انظر: مروج الذهبي ج(٢) المسعودي، ص١٢٧. وأيضاً الملل والنحل ج(١) الشهرستاني، ص٢٣٦.

(٤) مقدمة الفنديداد، د. زداؤد الجلبي، ص١٣.

(٥) Ashistory of Persia bol (1) Sykes p.104.

وأيضاً: Zoroaster - Jackson p.14.

(٦) Zoroaster-Jackson p.14.

(٧) The heritage of Persia-Richard p.104.

(٨) تجديد التاريخ، عمر فروخ، ص٤٩، والعالم بين يديك – جوزيف رعد، ص٧٢٩.

(٩) Avesta - Vendided, vol (1) p.3.

(١٠) آثار البلاد وأخبار العباد، القزويني، ص٢٣٣.

(١١) التنبيه والإشراف، المسعودي، ص١٣٤.

(١٢) كتاب تنسر، ص٥٣.

(١٣) History of Zoroastrianism - Dhalla, p. 311.

(١٤) تجديد التاريخ، عمر فروخ، ص٥٠.

(١٥) A history of Persia vol (1) - Sykes p. 104.

(١٦) نهر آراس أو الرس كما يقول القزويني من أنهار آذربيجان، وهو نهر عظيم شديد جري الماء، وفي أرضه حجارة لا تجري السفن فيه، وله أجراف هائلة وحجارة كبيرة، انظر في ذلك: آثار البلاد وأخبار العباد، القزويني، ص٢٨٥.

(١٧) Avesta-Vendided, vol (1) p. 137.

(١٨) محاضرات في تاريخ المذاهب والأديان، عبدالعزيز الثعالبي، ص٥٨.

(١٩) History of Zoroastrianism - Dhalla, p. 312.

(٢٠) Avesta - Vendidad vol (1) p. 143.

(٢١) History of Zoroastrianism - Dhalla, p. 313.

(٢٢) Avesta - Vendidad vol (1) p. 132.

(٢٣) History of Zoroastrianism - Fhalla, p. 314.

(٢٤) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٢٥) المصدر السابق ص١٣.

(٢٦) تزوج زرادشت في حياته ثلاث نساء، أنجب من الأولى (هانوية) والثانية، ولم ينجب من الثالثة.

(٢٧) قصة العقائد بين السماء والأرض، سليمان مظهر، ص٢٨٢-٢٨٣.

(٢٨) History of Zoroastrianism - Dhalla p. 310.

(٢٩) يقول القزويني عن جبل سابلان: إنه من أعلى جبال الدنيا، يقع في منطقة آذربيجات، وهو الذي ذهب إليه زرادشت معتزلاً عن الناس، ومنه آتاهم بكتاب باستا، ثم حكى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله:

«من قرأ سبحان الله حين تصبحون إلى قوله تخرجون، كتب الله له من الحسنات بعدد كل ورقة ثلج تسقط على جبل سابلان، قيل وما جبل سابلان يا رسول الله، قال: جبل بين آرمينيا وآذربيجان، عليه عين من عيون الجنة، وفيه قبر من قبور الأنبياء».

آثار البلاد وأخبار العباد، القزويني، ص٢٨٤ و٣٩٩.

(٣٠) Zoroaster - Jackson p.36, 40.

(٣١) History of Zoroastrianism - Dhalla. 314, 451.

(٣٢) History of Zoroastrianism - Dhalla. 314.

(٣٣) World Religions - Nigosian, p. 181.

(٣٤) History of Zoroastrianism - Dhalla, p. 314. وأيضاً الملل والنحل ج(١) الشهرستاني ص٢٣٧.

(٣٥) Wordl Religions - Nigosian, p. 181.

(٣٦) History of Zoroastrianism - Dhalla, p. 21.

(٣٧) Avesta, vol (2) Yasna, p. 83. الترجمة العربية من كتاب زرادشت الحكيم – حامد عبدالقادر، ص٥.

(٣٨) الملل والنحل ج(١)، الشهرستاني، ص٢٤١.

(٣٩) Zoroaster-Jackson, p. 48.

(٤٠) الملل والنحل ج(١)، الشهرستاني، ص٢٤٢.

(٤١) زرادشت الحكيم، حامد عبدالقادر، ص٤٧.

(٤٢) الملل والنحل ج(١)، الشهرستاني، ص٢٤١، وأيضاً: - History of Zoroasterianism Dhalla, p. 3451.

(٤٣) الابتساق هو الاسم العربي لكلمى أفستا Avesta، والكلمة فيما يبدو مجهولة الأصل، لا يعرف لها حقيقة ولا اشتقاق، وأغلب الظن أنها مأخوذة من الأصل الآري فيد أو بيذ بمعنى المعرفة أو العلم لما ليس بمعلوم، ويؤيد ذلك ما في الكتاب من العلوم والأخبار الماضية والكائن فيما بعد، ولم يكن للناس معرفة بها، ولم تكشف لهم إلا بمبعث زرادشت.

لم يبق من الابتساق الموحى به لزرادشت إلا (الكاثا Gatha) الذي يعد اليوم من أقدم وأقدس أسفاره، وله زيادة على ذلك مكانة خاصة عند المجوس، إذ يعتبرونه من كلام زرادشت وبلغته الأصلية، ولكن الأبحاث الحديثة أثبتت استحالة صلته بزرادشت، مثله في ذلك مثل سائر أسفار الابتساق، كل ما يتميز به عن غيره هو قدم نصوصه، بل هو من أقدم النصوص الزرادشتية، ولأجل ذلك ترتل آياته في احتفالات المجوس الخاصة وفقاً لطقوس معينة.

أما الأسفار الباقية فقد انقرضت ولم يبق منها شيء، والابتساق الموجود اليوم لا يوجد فيه إلا سفر واحد كامل من الأسفار التي تم جمعها وتدوينها وترجمتها في العصر الساساني هو سفر الفنديداد، الذي بقي إلى حد كبير سليماً منذ تدوينه.

والابتساق المتداول في وقتنا الحاضر بين أيدي المجوس في الهند وإيران، هو جزء ناقص من النسخة التي جمعت أيام الساسانيين، وهو الجزء الوحيد الذي حمله معهم الفرس الزرادشتيون في هجرتهم الأولى بعد الفتح الإسلامي إلى الهند.

ومحتويات الكتاب قسمت من الناحية الموضوعية إلى خمسة أقسام هي:

(١) الفنديداد Vendidad: ومعنى الفنديداد الشريعة المضادة للشياطين. وهو السفر الوحيد الذي وصلنا تاماً من أصل واحد وعشرين (نسكاً) كتاباً، ويحتوي على بيان الشرائع الخاصة بالزواج ونظم الأسرة والحياة والموت، والمشكلات الاجتماعية، والنجاسة، وقواعد الطهارة، وغسل الموتى، وتطهير الملابس، والصحة والمرض، والقسم وحفظ العهود وغيرها. ومن نصوص الفنديداد تتألف الشريعة والقوانين الأخلاقية ونظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمجوس في الهند وإيران.

(٢) الفسبرد Vispered: وهو يشتمل على أدعية وترتيلات لمناسبات الحياة المختلفة في الأعياد، وفي مواسم السنة، ولا يعد الفسبرد قسماً مستقلاً بنفسه، وإنما هو مكمل لما في اليسنا.

(٣) اليسنا Yasna: ومعنى اليسنا العبادة والتسبيح، أو العبادة والحمد والصلاة، وهو عبارة عن أدعية وصلوات على شكل مقطوعات منظومة وموزونة يتجه بها الزرادشتي إلى الله تعالى وإلى الملائكة، ومن بين فصول اليسنا مقطوعات موزونة هي التي تعرف بالكاثا Gatha أقدم أجزاء الابتساق وأكثرها قداسة لدى المجوس.

(٤) اليشتا Yasht أو اليشتات: ومعنى كلمة يشت عند الإسلاميين قديما هو العبادة والزمزمة على الطعام والتسبيح، أما اليوم فاليشتا هي عبارة عن تراتيل وترانيم منظومة ومقسمة إلى أبيات في صورة ابتهالات للملائكة التي تسيطر على جميع الظواهر الكونية والقوى الإنسانية، وفيها حمد وثناء موجه إلى كل ملاك من ملائكة الله على حدة.

(٥) خوردة أفستا Khorda Avesta: أي الابتساق الصغير، وقد دون في زمن شابور الثاني (٣١٠-٣٧٩م)، وهو جامع لشريعة زرادشت، ويتضمن أدعية وصلوات خاصة بكل وقت في اليوم، أو الأيام المباركة من الشهر، والأعياد الدينية في العام، وأوقات الصحة والمرض، ويشتمل أيضاً على أحكام العبادات والزواج والطلاق وغيرها.

في هذا انظر Avesta ?The Religious Books of the Parees, p. 6 وأيضاً قصة الحضارة ج(٣) ول ديورانت، ص٤٤٠، والأسفار المقدسة، عبدالواحد وافي، ص١٤٠، و١٤٢، و A history of Persia, vol (1) Sykes, p. 135.

(٤٤) الملل والنحل ج(١)، الشهرستاني، ص٢٤١. وزرادشت الحكيم، حامد عبدالقادر، ص٥٢.

(٤٥) الملل والنحل ج(١)، الشهرستاني، ص٢٤١. وزرادشت الحكيم، حامد عبدالقادر، ص٥٢، ٥٣، ٥٤. وتجدرد التاريخ، عمر فروخ، ص٥٣.

(٤٦) تجديد التاريخ، عمر فروخ، ص٥٣.

(٤٧) A vesta - Yasna, vol (2), p. 86-94.

(٤٨) المصدر السابق، ص١٠١-١٠٢.

(٤٩) غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم، الثعالبي، ص٢٦٢.

(٥٠) History of Zoroastrianism - Dalla, p. 546.

(٥١) المصدر السابق، ص٣١٧-٤٥٦.

(٥٢) انظر في هذا: تجديد التاريخ، عمر فروخ، ص٥٤ والعالم بين يديك، د. جوزيف رعد، ص٧٧٣. وأيضاً: History of Zoroastrianism - Dhalla, p. 456.

(٥٣) History of Zoroastrianism - Dhalla, p. 456.

(٥٤) غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم، الثعالبي، ص٢٦٢، وأيضاً مروج الذهب ج(١) المسعودي، ص٢٥٤.

(٥٥) History of Zoroastrianism - Dhalla, p. 30.

(٥٦) المصدر السابق، ص٣٠.

(٥٧) المصدر السابق، ص٣٠.

(٥٨) زرادشت الحكيم، حامد عبدالقادر، ص٨٠.

(٥٩) History of Zoroastrianism - Dhalla, p. 31.

(٦٠) History of Zoroastrianism - Dhalla, p. 13.

(٦١) Avesta - Yasna, vol (2), p. 85.

(٦٢) المصدر السابق، ص١٠٢.

(٦٣) المصدر السابق، ص٨٦.

(٦٤) History of Zoroastrianism - Dhalla, p. 13Z

(٦٥) Avesta - Yasna, vol. (2), p. 53.

(٦٦) المصدر السابق، ص٤٠.

(٦٧) المصدر السابق، ص٤٤.

(٦٨) Avesta - Bendidad vol. (1), p. 127, 139.

(٦٩) Wbesta - Yasna, vol (2) p. 22, 63, 66.

(٧٠) History of Zoroastrianism - Dhalla, p. 315.

(٧١) Avesta - Vendidad vol. (1) p. 131.

(٧٢) زرادشت الحكيم، حامد عبدالقادر، ص٨٠.

(٧٣) الأسفار المقدسة، علي عبدالواحد، ص١٤٤.

(٧٤) Avesta - Vendidad, vol. (1) p. 131.

(٧٥) الملل والنحل، ج(١)، الشهرستاني، ص١٥١.

(٧٦) Avesta - Vendidad, vol. (1), p. 44.

(٧٧) حكمة الأديان الحية، جوزيف كاير، ص٢٥٨.

(٧٨) إيران في عهد الساسانيين - كريستنس، ص٢٠.

(٧٩) الملل والنحل ج(١)، الشهرستاني، ص٢٣٨.

(٨٠) Avesta - Yasna, vol (2), p. 49, 55, 56, 85, 86.

(٨١) History of Zoroastrianism - Dhalla, p. 357.

(٨٢) الملل والنحل ج(١)، الشهرستاني، ص٢٣٩.

(٨٣) و(٨٤) و(٨٥) History of Zoroastrinism - Dhalla, p. 357, 358.

(٨٦) History of Zoroastrinism - Dhalla, p. 75, 126.

(٨٧)

وأيضاً العالم بين يديك، جوزيف رعد، ص٧٢٥.

(٨٨) (٨٩) History of Zoroastrianism - Dhalla, p. 173.

(٩٠) البدء والتاريخ ج(١)، المقدسي، ص٦٣.

(٩١) Avesta - Yansa vol (2), p. 51.

(٩٢) المصدر السابق، ص٥٨.

(٩٣) Avesta - Khordh - Abrsta, vol. (3), p. 136-137.

(٩٤) Avesta - Vendidad, vol (1), p. 141.

(٩٥) Avesta - Khordh Avestam vol. (3), p. 138-139.

(٩٦) تفسير الطبرسي، ج(٧)، ص٤٧. وأيضاً يوم الفزع الأكبر، القرطبي، ص٥٢.

(٩٧) مريم، آية ٨٥.

(٩٨) الأنعام، آية ٣١.

(٩٩) Avesta - Yasna, vol. (2), p. 63, 90.

(١٠٠) الأعراف، آية ٤٦ و٤٨.

(١٠١) يوم الفزع الأكبر، القرطبي، ص٢٧٩.

(١٠٢) تفسير ابن كثير ج(٢)، ص٢٩. وأيضاً تفسير الطبرسي ج(٨)، ص٦٥.

(١٠٣) Avesta - Yasna, vol. (2), p. 72-100.

(١٠٤) History of Zoroastrianism-Dhalla, p. 105.

(١٠٥) Avesta-Yasna, vol. (2), p. 56, 85.

(١٠٦) الملل والنحل ج(١)، الشهرستاني، ص٢٣٨.

(١٠٧) Avesta - Vendidad, vol. (1), p. 42, 93.

(١٠٨) المصدر السابق، ص٩٣.

(١٠٩) المصدر السابق، ص٤٤.

(١١٠) المصدر السابق، ص١٣٧.

(١١١) Avesta0Yasna, vol. (2), p. 62.

(١١٢) Avesta-Vendidad vol. (1), p. 26.

(١١٣) غرر أخبار ملوك الفرس، الثعالبي، ص٢٥٦.

(١١٤) كتاب تنسر، ص٣٨.

(١١٥) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(١١٦) Avesta - Vendidad vol. (1), p. 43.

(١١٧) المصدر السابق، ص١١٥، ١٢٨.

(١١٨) انظر في ذلك: Zoroastrianism and Judaism-Carter, p. 70 وأيضاً قصة الأدب في العالم، أحمد أمين وزكي نجيب محمود ص٣٤.

(١١٩) في هذا انظر: Avesta-Vendidad vol (1) p.129 وأيضاً Avesta-Khordah vol. (3), p. 14 وأيضاً Avesta Yasna vol. (2), p. 50.

(١٢٠) غرر أخبار ملوك الفرس، الثعالبي، ص٢٦٠.

(١٢١) المصدر السابق، ص٢٥٩.

(١٢٢) المصدر السابق، ص٢٥٩.

(١٢٣) Avesta-Vendidad, vol (1) p. 131,132.

(١٢٤) المصدر السابق، ص١٢٤، ١٢٥.

(١٢٥) المصدر السابق، ص١٢٥.

(١٢٦) المنهيات، الترمذي، ص١٠٣.

(١٢٧) Avesta-Vendidad, vol. (1), p. 116.

(١٢٨) كتاب تنسر، ص٣٨.

(١٢٩) الإستار والإستاتيرة نوع من المسكوكات النقدية التي كان يتعامل بها الفرس.

(١٣٠) غرر أخبار ملوك الفرس، الثعالبي، ص٢٦٠.

(١٣١) كتاب تنسر، ص٣٨.

(١٣٢) المصدر السابق، ص٣٨.

(١٣٣) Avesta-Vendidad, vol. (1), p. 30.

(١٣٤) كتاب تنسر، ص٠٤.

(١٣٥) المصدر السابق، ص٤٠.

(١٣٦) المصدر السابق، ص٤٠، وأيضاً البدء والتاريخ ج(٤)، المقدسي، ص٢٨، ٢٩.

(١٣٧) كتاب تنسر، ص٣٩، وأيضاً البدء والتاريخ ج(٤) المقدسي، ص٢٩.

(١٣٨) كتاب تنسر، ص٣٩، ٤٠.

(١٣٩) Avesta-Vendidad, vol. (1), p. 4.

(١٤٠) المصدر السابق، ص٧٣.

(١٤١) المصدر السابق، ص٧٣.

(١٤٢) انظر ذلك في التواريخ – هيرودوتس، ص٧٥، وقصة الحضارة، ج(٢) ديورانت، ص٤٤٣. وأيضاً History of Persia vol. (2), Sykes, p. 161.

(١٤٣) إغاثة اللهفان، ج(١)، ابن قيم الجوزية، ص٤٤١.

(١٤٤) غرر أخبار ملوك الفرس، الثعالبي، ص٢٥٩.

(١٤٥) Avesta-Khordah Avesta, vol. (3), p. 16.

(١٤٦) Avesta-Vendidad, vol (1), p. 129.

(١٤٧) محاضرات في تاريخ المذاهب والأديان، عبدالعزيز الثعالبي، ص٦٠.

(١٤٨) في هذا انظر، دراسات في الشاهنامة، طه ندا، ص٢٤٥، وأيضاً زرادشت الحكيم، حامد عبدالقادر، ص٩٠.

(١٤٩) Avesta - Yasna, vol (2), p. 101.

(١٥٠) الآثار الباقية، البيروني، ص٢١٩، ٢٢٣.

(١٥١) لسان العرب، ابن منظور (مادة زمزم) وأيضاً تاريخ العرب. ج(١) جواد علي، ص٦٩٥.

(١٥٢) History of Zoroastrianism-Dhalla, p. 441.

(١٥٣) البقرة، آية ١٨٣.

(١٥٤) التواريخ، هيرودوتس، ص٧٤.

(١٥٥) الأركان الأربعة، الندوي، ص٨٨ نقلاً عن دائرة المعارف البريطانية.

(١٥٦) الآثار الباقية، البيروني، ص٢٢٠.

(١٥٧) Avesta - Vendidad, vol (1), p. 36, 37.

(١٥٨) History of Zoroastrianism - Dhalla, p. 346.

(١٥٩) غرر أخبار ملوك الفرس، الثعالبي، ص٢٦٠.

(١٦٠) Avesta - Vendidad, vol (1), p. 146.

(١٦١) المصدر السابق، ص١٤٢.

(١٦٢) المصدر السابق، ص١٣٠، ١٣١.

(١٦٣) التواريخ، هيرودوتس، ص٧٤.

(١٦٤) زرادشت الحكيم، حامد عبدالقادر، ص٣٥.

(١٦٥) و(١٦٦) Avesta - Vendidad, vol p(1), p. 24.

(١٦٧) المصدر السابق، ص٢١.

(١٦٨) المصدر السابق، ص٢٦.

(١٦٩) غرر أخبار ملوك الفرس، الثعالبي، ص٢٥١.

(١٧٠) التواريخ، هيرودوتس، ص٧٤، وأيضاً: Avesta - Vendidad, vol. (1), p. 58, 59.

(١٧١) التواريخ، هيرودوتس، ص٧٦.

(١٧٢) Vesta-Yasna vol (2), p. 47.

(١٧٣) Avesta-Vendidad, vol. (1), p. 21.

(١٧٤) Avesta-Yasna, vol. (2), p. 96.

(١٧٥) Avesta-vendidad, vol (1), p. 184.

(١٧٦) المصدر السابق، ص١٠٨و ١٠٩.

(١٧٧) المصدر السابق، ص١١١، ١١٤. وأيضاً الأسفار المقدسة، علي عبدالواحد وافي، ص١٤٧.

(١٧٨) غرر أخبار ملوك الفرس، الثعالبي، ص٢٦٠، وأيضاً البدء والتاريخ ج(٤)، المقدسي، ص٢٨.

(١٧٩) Avesta-Vendidad, vol. (1), p. 36.

(١٨٠) دراسات في الشاهنامة. طه ندا، ص٣٢٧.

(١٨١) قصة الحضارة، ج(٩)، ديورانت، ص٤٤٢.

(١٨٢) A history of Persia, vol. (1), Sykes, p. 172.

(١٨٣) A vesta - Vendidad, vol. (1), p. 133.

(١٨٤) المصدر السابق، ص١٣٣.

(١٨٥) المصدر السابق، ص١١٥، ١١٦، ١١٧، ١٢٣.

(١٨٦) المصدر السابق، ص١١٠.

(١٨٧) دراسات في الشاهنامة، طه نداء، ص٢٣٨.

(١٨٨) A vesta-Vendidad, vol. (1), Fargard No: 5, 16.

(١٨٩) إيران في عهد الساسانيين، كريستنسن، ص٣١١.

(١٩٠) A vesta - Vendidad, vol. (1), p. 119.

(١٩١) إيران في عهد الساسانيين، كريستنسن، ص٣١١، ٣١٢.
وأيضاً دراسات في الشاهنامة، طه نداء، ص٢٣٨.

(١٩٢) التواريخ، هيرودوتس، ص٧٥.

(١٩٣) History of Zoroastrienism - Dhalla, p. 133.

(١٩٤) التواريخ، هيرودوتس، ص٧٦.

(١٩٥) قصة الحضارة ج(٣)، ديورانت، ص٤٤٢، وأيضاً إيران في عهد الساسانيين، كريستنسن، ص٤٢.

(١٩٦) التنبيه والإشراف، المسعودي، ص١٨٥.

(١٩٧) الآثار الباقية، البيروني، ص٢١٧.

(١٩٨) الآثار الباقية، البيروني، ص٢١٧. وأيضاً: زرادشت الحكيم، حامد عبدالقادر، ص٩٧.
وأيضاً: Zorostrians, their Religious Beliefs and Practices-Boyces, p. 33.

(١٩٩) انظر في ذلك الجزء الملحق بالافستا الصغيرة بنفس العنوان، ص١٥٣ وما بعدها.

(٢٠٠) دراسات في الشاهنامة، طه نداء، ص٢٦٢.

(٢٠١) الآثار الباقية، البيروني، ص٢١٨.

(٢٠٢) المصدر السابق، ص٢١٨، ٢١٩.

(٢٠٣) التنبيه والإشراف، المسعودي، ص١٨٤.

(٢٠٤) (٢٠٥) (٢٠٦) (٢٠٧) (٢٠٨) الآثار الباقية، البيروني، ص٢٢٢ و٢٢٣.

(٢٠٩) الآثار الباقية، البيروني، ص٢٢٢، وأيضاً إيران في عهد الساسانيين، كريستنسن، ص١١٤.

(٢١٠) دراسات في الشاهنامة، طه نداء، ص٢٦٢.

(٢١١) الآثار الباقية، اليروني، ص٢٢٥.

(٢١٢) الآثار الباقية، البيروني، ص٢٣١.

(٢١٣) دراسات في الشاهنامة، طه نداء، ص٢٦٤.

(٢١٤) انظر في ذلك: Avesta-Vemdidad, vol (1), p. 79, 83.

(٢١٥) المصدر السابق، ص٤.

(٢١٦) المصدر السابق، ص٤، ٥، ٥١.

(٢١٧) المصدر السابق، ص٣٢.

(٢١٨) الفصل الثالث عشر من الفنديداد خاص بأيام الحداد الواجبة على أقرباء الميت.
(٢١٩) لا يزال مجوس الهند إلى يومنا هذا يصلون على موتاهم ثلاثة أيام متتالية بعد عرض الجثة في الدخمة انظر في ذلك: World Religions - Nigosian, p. 187.
(٢٢٠) زرادشت الحكيم، حامد عبدالقادر، ص٧٧ وأيضاً، دراسات في الشاهنامة، طه نداء ص٢٦٤.
(٢٢١) Avesta - Vendidad, vol. (1), p. 22.
(٢٢٢) المصدر السابق، ص٢٢.
(٢٢٣) المصدر السابق، ص٦٢.
(٢٢٤) المصدر السابق، ص٦٣.
(٢٢٥) التاريخ، هيرودوتس، ص٧٦.
(٢٢٦) انظر في هذا: Parsism, The Regligion of Zoroaster - Seven. p.7. Zoroastrians, their Religious Beliefs and practices - Boyce, 57, 58.
قصة الحضارة ج(٣)، ديورانت، ص٤٤٨.
(٢٢٧) في تحقيق شخصية ذي القرنين انظر كتاب ويسألونك عن ذي القرنين لمولانا أبو الكلام آزاد.
(٢٢٨) الكهف، الآيات من ٨٣ إلى ٩٨.
(٢٢٩) (٢٣٠) ويسألونك عن ذي القرنين، أبو الكلام آزاد، ص١٣٩.
(٢٣١) ويسألونك عن ذي القرنين، أبو الكلام آزاد، ص١٤١، ٢٤٢.
(٢٣٢) تاريخ الأدب في إيران، ج(١)، براون، ص٧٧.
(٢٣٣) قصة الأدب في العالم، ج(١)، أحمد أمين وزكي نجيب محمود، ص٧٦ و٧٧.
(٢٣٤) الكهف آية ٩٨.
(٢٣٥) History of Zoroastrianm-Dhalla, p. 63.
(٢٣٦) ويسألونك عن ذي القرنين، أبو الكلام آزاد، ص١٥٣.
(٢٣٧) آثار البلاد وأخبار العباد، القزويني، ص٤٠٠.
(٢٣٨) History of Zoroastrianism-Dhalla, p. 442.
(٢٣٩) المصدر السابق، ص٢٩٣، وأيضاً محاضرات في تاريخ المذاهب، عبدالعزيز الثعالبي، ص٦٢.
(٢٤٠) History of Zoroastrianism - Dhalla, p. 293.
(٢٤١) كتاب تنسر، ص٣١، ٣٢.
(٢٤٢) في هذا انظر: محاضرات في المذاهب والأديان، عبدالعزيز الثعالبي، ص٦٢، وأيضاً مقدمة عهد أردشير، إحسان عباس، ص٩، ١٠، ١١.
(٢٤٣) عهد أرشدير، ص٥٣ و٥٤.
(٢٤٤) تاريخ العرب، جواد علي، ٦٩١ و٦٩٥، وأيضاً تاريخ الأدب في إيران، براون ص٧٦.

(٢٤٥) Avesta-Yasna, vol. (2), p. 134.

(٢٤٦) Avesta-Vemdidad, vol. (1), p. 36.

(٢٤٧) Hiostory of Zoroastrianism-Dhalla, p. 137.

(٢٤٨) و(٢٤٩) و(٢٥٠) التواريخ، هيرودوتس، ص٢٢١، ٢٢٢.

(٢٥١) المرجع السابق، ص٢٤٧.

(٢٥٢) في تاريخ المجوسية عند العرب انظر المفصل في تاريخ العرب، جواد علي، ص٩٦٣-٩٦٤.

(٢٥٣) الحج آية ١٧.

(٢٥٤) صحيح مسلم، ج(١٦)، ص٢٠٧.

(٢٥٥) سبل السلام ج(٤)، الصنعاني، ص١٣٧٢.

(٢٥٦) الطبقات الكبرى، ج(١)، ابن سعد ٢٦٣. وأيضاً كتاب الخراج، أبو يوسف ص٢٥٤ و٢٦٥.

(٢٥٧) الطبقات الكبرى ج(١)، ابن سعد ص٢٦٣، وأيضاً كتاب الخراج، أبو يوسف، ص٢٦٨.

(٢٥٨) كتاب الخراج، أبو يوسف، ص٢٦٦.

(٢٥٩) الملك الذي يعنيه علي بن أبي طالب هو قمبيز فقد روى عنه هيرودوتس رواية تتفق مع ما قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه في فرضه الزواج من الأخت ولم يكن الفرس يتزوجون أخواتهم قبله وتختلف عنها في الكيفية التي سن لهم فيها زواج الأخت، فيقول عنه في تاريخه (٢٢٠٧ و٢٠٨):

«كان قمبيز قد شغف بحب إحدى شقيقاته وأراد أن يتزوجها وذلك لم يسبق إليه، فاستدعى قضاة الملك وسألهم هل توجد شريعة تسمح للأخ أن يتزوج أخته إذا كان يشتهي ذلك. وكان هؤلاء القضاة مختارين من كل الفرس ويبقون في وظائفهم إلى آخر حياتهم ما لم يتحقق منهم شيء من المظالم، وهم مفسرو الشرائح وقضاة الدعاوى وكل المصالح تنتهي إلى مجلسهم فلما سألهم قمبيز أجابوه جواباً يأمنون به الخطر بدون أن يمس جانب العدالة بضرر فإنهم قالوا: لا توجد شريعة تسمح للأخ أن يتزوج أخته، ولكن توجد شريعة تسمح لملك الفرس أن يفعل ما يريد. فبجوابهم هذا لم ينقضوا حكمالشرع مع أنهم كانوا خائفين من قمبيز، ولكي لا يعرضوا أنفسهم للهلاك بمنعه وجدوا سنة أخرى تسمح للملك بما اشتهاه من تزوج أخته، فعلى هذا الجواب تزوج قمبيز التي يحبها، وبعد قليل من الزمان اتخذ زوجة واحدة أخرى من شقائقه وهي أصغرهن سناً، فهذه هي التي مضت معه إلى مصر وقتلها».

(٢٦٠) كتاب الخراج، أبو يوسف، ص٢٦٦، ٢٦٧.

(٢٦١) نيل الأوطار ج(٨)، الشوكاني، ص٥٧.

(٢٦٢) تفسير المنار ج(٦)، محمد رشيد رضا، ص١٨٨.

(٢٦٣) سبل السلام ج(٤) الصنعاني، ص١٣٧٣.

(٢٦٤) تفسير المنار، ج(٦) محمد رشيد رضا، ص١٨٨.

(٢٦٥) الملل والنحل ج(١)، ابن حزم، ص١٩٩، ٢٠٠.

(٢٦٦) Parsism-Sven p. 26.

(٢٦٧) Ahistory of Persia, vol. (1), Sykes, p. 5.

(٢٦٨) Man's Religions-Boss, p.47.

(٢٦٩) A persian Stronghold of Zoroastrianism-Boyce, p. 19.

(٢٧٠) Parisism-Sven, p. 18.

(٢٧١) Parsism-Sven, p. 26 وأيضاً: Wordld Rreligions-Nigosian, p. 188.

(٢٧٢) World Religions-Nigosian, p. 188.

(٢٧٣) المصدر السابق، ص١٨٨.

(٢٧٤) هامش الفنديداد، ص١٦٤.

(٢٧٥) Avesta - Lhordah - Avesta, vol. (3), p. 4.

(٢٧٦) دراسات في الشاهنامة، طه ندا، ص٢٦٦.

(٢٧٧) World Religions-Nigosian, p. 190.

(٢٧٨) Man's Religions-Boss, p. 471.

(٢٧٩) World \Religions - Nigosian, p. 188.

(٢٨٠) Man's Religions-Boss, p. 374. وأيضاً: World Religions-Nigosian p. 188.

(٢٨١) Parsism-Sven p. 19.

(٢٨٢) الحكماء الثلاثة، أحمد الشنتناوي، ص٥٧.

(٢٨٣) Zoroastrians-Boyce, p. 34.

(٢٨٤) المرجع السابق، ص٣٤.

(٢٨٥) انظر ذلك: قصة العقائد، سليمان مظهر، ص٢٣٦.
وأيضا: Men's Religions - Boss, p. 470.

(٢٨٦) Parsism-Sven, p. 22.

(٢٨٧) Man's Religions, p. 473.
وأيضاً: Religions of the World-Hopfe, p. 180.

(٢٨٨) و(٢٨٩) Religions of the World-Hopfe, p. 180.

(٢٩٠) Parsism - Sven, p. 10.

(٢٩١) Parsism - Sven, p. 19.

(٢٩٢) Parsism - Sven, p. 19.

(٢٩٣) Parsism - Sven, p. 19.

المراجع

أولاً: المراجع العربية:

١ – أحمد أمين وزكي نجيب محمود، «قصة الأدب في العالم» جـ(١)، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٣م.

٢ – أحمد الشنتناوي، «الحكماء الثلاثة»، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٧م.

٣ – إحسان عباس، «عهد آردشير» بيروت، دار صادر، ١٩٦٧م.

٤ – آزاد، مولانا أبو الكلام، «ويسألونك عن ذي القرنين»، القاهرة، مطبوعات الشعب، ١٩٧٢م.

٥ – ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، «الفصل في الملل والنحل» جـ(١) تحقيق محمد إبراهيم وعبدالرحمن عميرة، جدة شركة مكتبات عكاظ، ١٩٨٢م.

٦ – ابن سعد، رالطبقات الكبرى»، جـ(١)، بيروت، دار صادر، دار بيروت، دت.

٧ – ابن قيم الجوزية، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر، «إغاثة اللهفان»، جـ(١)، تحقيق محمد حامد فقي، بيروت، دار المعرفة، دت.

٨ – ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، «تفسير القرآن العظيم»، جـ(٢)، بيروت، دار الأندلس للطباعة والنشر، ١٩٦٦م.

٩ – أبو يوسف، صاحب أبي حنيفة، «كتاب الخراج»، تحقيق محمد إبراهيم البنا، القاهرة، دار الاعتصام، ١٩٨١م.

١٠– براون، إدوارد، «تاريخ الأدب في إيران» جـ(١)، ترجمة أحمد كمال الدين حلمي، الكويت، مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٨٤م.

١١– البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد، «الآثار الباقية عن القرون الخالية»، القاهرة، مكتبة المثنى بغداد ومؤسسة الخانجي، ١٩٢٣م.

١٢– الترمذي، الحكيم أبو عبدالله «المنهيات»، تحقيق أبو هاجر محمد زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٦م.

١٣- تنسر، كتاب تنسر، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة، جماعة الأزهر للنشر والتأليف، د.ت.

١٤- الثعالبي، أبو منصور، «غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم»، تحقيق هـ زوتنبيرق H. Zotenberg بدون دار نشر، د.ت.

١٥- جواد علي، «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» جـ(٦)، بيروت، دار العلم للملايين ومكتبة النهضة، ١٩٧٠م.

١٦- جوزيف كاير، «حكمة الأديان الحية»، ترجمة حسين الكيلاني، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٤م.

١٧- جوزيف رعد، «العالم بين يديك (جولات سائح)»، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٤م.

١٨- حامد عبدالقادر، «زرادشت الحكيم نبي قدامى الإيرانيين، حياته، وفلسفته»، القاهرة، مكتبة النهضة، مصر، ١٩٥٦م.

١٩- سليمان مظهر، «قصة العقائد بين السماء والأرض»، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٢م.

٢٠- الشهرستاني، عبدالكريم بن أبي بكر أحمد، «الملل والنحل»، جـ(١)، تحقيق محمد سيد كيلاني، بيروت، دار المعرفة، د.ت.

٢١- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، «نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار»، جـ(٧)، القاهرة، شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي، د.ت.

٢٢- الصنعاني، محمد بن إسماعيل، «سبل السلام شرح بلوغ المرام»، جـ(٤)، تحقيق محمد عبدالعزيز الخولي، بيروت، دار الجيل، ١٩٨٧م.

٢٣- الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن، «مجمع البيان في تفسير القرآن»، جـ(٨)، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٦١م.

٢٤- طه ندا، دراسات في الشاهنامة، الإسكندرية، دار الطالب، ١٩٥٤م.

٢٥- عبدالعزيز الثعالبي، «محاضرات في تاريخ المذاهب والأديان»، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٥م.

٢٦- عمر فروخ، «تجديد التاريخ في تعليله وتدوينه»، بيروت، دار الباحث، ١٩٨٠م.

٢٧- علي عبدالواحد وافي، «الأسفار المقدسة في الأديان السماوية»، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، ١٩٦٤م.

٢٨- القرطبي، أبو عبدالله محمد، «يوم الفزع الأكبر»، تحقيق محمد إبراهيم سليم، القاهرة، مكتبة القرآن، ١٩٨٤م.

٢٩- القزويني، زكريا محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٤م.

٣٠- كريستنسن، آرثر، «إيران في عهد الساسانيين»، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٧م.

٣١- محمد رشيد رضا، «تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)» جـ(٦)، بيروت، دار المعرفة، د.ت.

٣٢- المقدسي، «البدء والتاريخ»، جـ(٤)، بيروت، مكتبة خياط، د.ت.

٣٣- مسلم، بن الحجاج القشيري، «صحيح مسلم (شرح النووي)» بدون دار نشر، طبع عام ١٣٤٩هـ.

٣٤- المسعودي، أبو الحسن علي، «التنبيه والإشراف»، تحقيق عبدالله إسماعيل الصاوي، القاهرة، دار الصاوي للطبع والنشر والتأليف، ١٩٣٨م.

٣٥- المسعودي، أبو الحسن علي، «مروج الذهب» جـ(١)، بيروت، دار الأندلس للطباعة والنشر، ١٩٦٥م.

٣٦- الندوي، أبو الحسن الحسني، «الأركان الأربعة»، الكويت، دار القلم، ١٩٧٤م.

٣٧- هيرودوتس، «التواريخ»، ترجمة حبيب أفندي يسترس، بيروت، مطبعة القديس جاورجيوس، ١٨٨٦م.

٣٨- ول ديورانت، «قصة الحضارة»، جـ(٣)، ترجمة زكي نجيب محمود، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٠م.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

1 - Avesta, The Religous Books of the Parasees, Trans. by Arthur Henry Bleeck, Hertford, 1864.

ترجم د. داود جلبي الموصلي إلى اللغة العربية، المجلد الأول (الفنديداد) عن الترجمة الفرنسية للابتساق، الموصل، مطبعة الاتحاد الجديدة، ١٩٥٢م.

2 - Boss, John, B. Man's Religions, New York, The Macmillan Company, 1951.

3 - Boyce, Mary. Zoroastrians, their Religious Beliefs and Practices, London, Routedge and Kegan Paul, 1979.

4 - Boyce, Mary, Apersian Stronghold of Zoroastrianism, London, Oxford University Press, 1977.

5 - Carter, G wiliam, Zoroastrianism and Judaism, New York, AMS Press, 1970.

6 - Dhalla, Maneckji N, History of Zoroastrianism, Bomby, The K.R. Cama Oriental Institute, 1983.

7 - Frye; Richard N. The Heritage of Peria, New York, Amentor Book, 1963.

8 - Jackson, A. V. Williams, Zoroaster, the prophet of ancient Iran, New York, Columbia University Press, 1928.

9 - Hopfe, Lewis M. Religions of the World, London, Collier Macamillan Publishers, 1976.

10 - Nigosian, S.A. world Religions, London, Edward Arnold Publishers LTD, 1975.

11 - Sykes, Percy, A History of Persia, vol. (1), London, Macmillan and Company LTD, 1958.

12 - Sven S. Hartman Parsism, The religion of Zoroaster, Leiden, Netherlands, 1980.